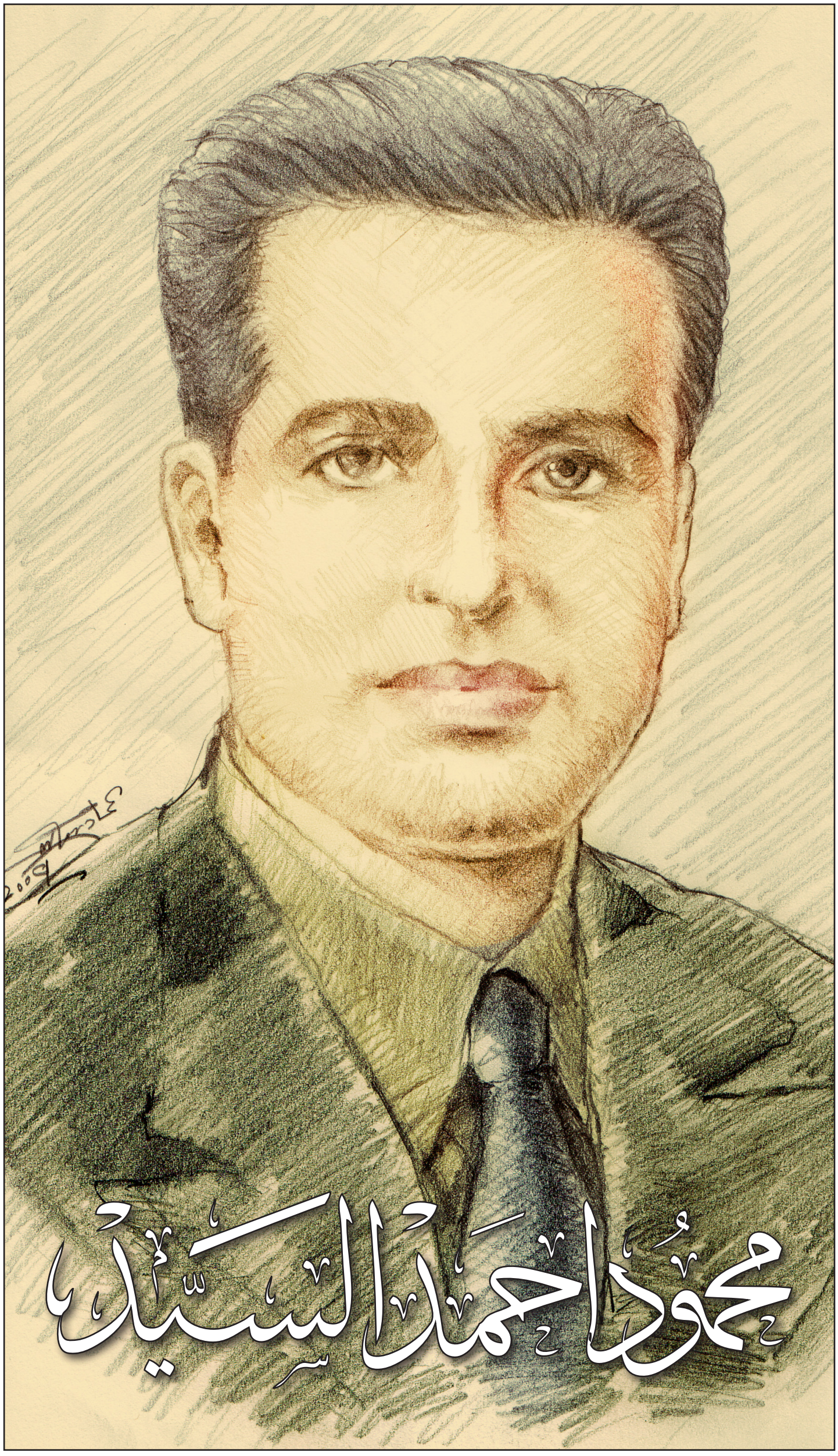

صراحة

من زمن التوهج

رئيس مجلس الادارة رئيس التحرير
فخري كريم

العدد (1678) السنة السابعة
الخميس (17) كانون الاول 2009

قراءة جديدة في ادب السيد القصصي

4

محمود السيد . . النشأة والتكوين

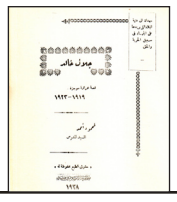

8

العراقيون
من زمن التوهج
العدد (1678)
السنة السابعة
الخميس (17)
كانون الاول2009

المرتكزات الجمالية والفكرية في قصص وروايات محمود احمد السيد

د. علي ابراهيم

الرحال والخلفية الفكرية لمحمود احمد السيد

لايمكن الحديث عن محمود احمد السيد رائد القصة العراقية دون المرور بـ(حسين الرحال) رائد الفكر التقدمي في العراق، والعكس صحيح، فقد جمع الرجلين اكثر من وشيجة، فهما من جيل واحد حيث ولدا عام (١٩٠٣) ولكن لم يلتق السيد بالرحال الا عندما بلغ العشرين من عمره وكان الرحال قد عاد تو ا من المانيا، حاملا معه العلوم التي تعلمها في ثانوية المانية في برلين حيث استفاد من تجربة شيوعيي (سبارتكيوس بند) الذين اقاموا متاريسهم في شوارع المدينة عام ١٩١٩، ويعد الرحال اول ماركسي في العراق حيث قرأ كتاب لينين (الاستعمار اعلى مراحل الرأسمالية) و(الدولة والثورة) وصحيفة (اللومانتيه) وجرائد اخرى منها (كابيه دي بولشفيك) وقرأ شعر (ناظم حكمت) وروج الفكر الاشتراكي من خلال اقناع صاحب المكتبة العصرية (محمود حلمي) باستيراد النشرات الاشتراكية، وقد اعجب محمود احمد السيد بالرحال من اللقاء الاول عندما سمعه مصادفة يناقش قضية فلسفية عميقة: كل شعور يأتي من الدماغ الى الحواس فهو كاذب، وكل حس يصدر من الحواس الى الدماغ حس صادق،، وبواسطة الحواس يتعرف الانسان على الاشياء الموجودة موضوعيات خارج دائرة دماغ الانسان وهي اجابة على سؤال الفلسفة الاساسي الذي جعل السيد ينحو منحى مغايرا للأفكار التي استقاها من جامع (الحيدرخانه) حيث نشأ وترعرع..

لقد امتهن الرحال والسيد الكتابة الصحفية وان تميز السيد عنه بكتابة القصة والرواية فضلا عن كتابته للمقالات بل ان مقالاته تحتل موقعا مهما في تاريخ المقالة في الادب العراقي الحديث، كما تكتسب اهمية خاصة من كونها تعكس الكثير من واقع الحياة الفكرية والادبية والاجتماعية والسياسية في العراق بين الحربين، وكلاهما السيد والرحال، عشقا الحرية والتقدم، وكانا رائدين في فهم واستيعاب الجديد، لقد كان الرحال مطلعا على ما كتبه (الافنرج) على حد تعبيره- وعلى الروايات العربية (المصرية والسورية) وله معرفة ببدايات القصة العراقية فقد قرأ (الرواية الايقاظية) لسليمان فيضي الموصلي وهو عليم بجوانب الفن القصصي وتتضح امكانياته في هذا الجانب النقدي من خلال المقدمة التي كتبها حول رواية محمود احمد السيد البكر (في سبيل الزواج) وقد تعززت اواصر الصداقة بينهما حيث اهدى روايته الثانية (مصير الضعفاء) الى الحر الابي حسين بك الرحال..

وان هذه الصداقة وصلت الى حد المشاركة في كتابة مقالات يتوافر فيها التكامل الذي تقتضيه طبيعة الموضوع الذي يستدعي معرفة اللغة الفرنسية التي تتوافر لحسين والتمكن من اساليب العربية الذي يتميز به محمود، ويرى ارشد الكاظمي، ان حسين الرحال حاول التأثير على محمود احمد السيد ليتجه في كتاباته الى معالجة الموضوعات الاجتماعية بدلا من القصص ولكنه لم يفلح في مسعاه هذا وهذا الكلام ليس دقيقا ان لم يكن خاطئا فقد كتب محمود احمد السيد عدة مقالات صدرت له في كتاب تحت عنوان (القلم المكسور)، حيث نرى في مقاله (آراء وافكار) دعوة لقلب الانظمة والقوانين لكي تستريح البشرية المعذبة وفي نفس المقال يطرح فكرة اراها متقدمة على زمانها وهي كل حركة تقاومها بمثلها ويشرح ذلك بقوله،، هذه قاعدة يجب ان يعلمها البشر جيدا، فلا يحاول ان يقاوم التيار الفكري بالنار والحديد بل اذا اراد فليوجد تيارا فكريا ثانيا يصنعه ازاء الاول في معترك الحياة، حينئذ يرى كيف يسقط الفاسد، ويثبت العالم الصحيح، وهي دعوة مبكرة للصراع السلمي الحضاري بين التيارات الفكرية والسياسية لو جرى الاخذ بها لتجنبنا الكثير من الدماء والدموع منذ العشرينيات والى يومنا هذا.

وبسبب عمق العلاقة بين الرجلين، جعل السيد من شخصية جلال خالد في روايته الموسومة بهذا الاسم معادلا موضوعيا او مزيجا من شخصيتي السيد والرحال فكلاهما زارا الهند وتأثرا بالاجواء السياسية وشعرا بالفوارق الطبقية العميقة، وتلمسا نضال العمل والكادحين من اجل تحقيق مطالبهم العادلة، وتأثرا بشخصية (ف. سوامي) وتعلما منه ان النضال لايمكن ان يكون الا في الوطن نجد ذلك في الحوار الذي دار بين جلال خالد وبينه الذي قال: نحن الذين ندعي بالوطنيين في الهند لانبرحها ردا على جلال خالد الذي برر الهرب من الوطن بالحرية المستلبة والسجناء الذين يكسرون الصخر على قوارع الطرق. ومما يؤكد ان جلال خالد هو حسين

لايترك محمود احمد السيد اية فرصة سانحة دون ان يتحدث عن الجانب الطبقي فنراه في قصة (بداي الفايز) وهي احدى قصص مجموعته (في ساع من الزمن) يتحدث عن فيضان الفرات يقول: الخطر كان اعظم مايكون في الضفة اليسرى من النهر، لان اهلها كانوا اقل تهديدا من جيرانهم اهل الضفة اليمنى وارضهم اوطأ من ارضهم وسدودهم اضعف من سدودهم

عراقيون
من زمن التوهج
العدد (1678)
السنة السابعة
الخميس (17)
كانون الاول2009

الرحال يذكر السيد في مقدمة الرواية: حقيقة، استندت في كتابتها الى مذكرات صاحبي جلال خالد الخاصة والى رسائله الى اصحابه، ورسائلهم اليه.. وقد نشر هذه الرسائل في الفصل الثاني من الرواية بعد ان اذن له جلال خالد اي حسين الرحال كما هو واضح، واستند في كتابتها الى احاديث الكاتب الهندي (ف. سوامي) وهناك اشارة في الرواية الى زيارة الاثنين معا السيد والرحال الى الهند، قدر لي ان ازور الهند كما زارها صاحبي جلال خالد، وتشير الرواية الى تقييم علمي لطلبيعة المجتمع العراقي في ذلك الوقت حيث ترد العبارة التالية: ان المثقفين الذين درسوا العلوم في اوربا والحاملين خلاصة ثقافة العصر الحديث هم طلاب الاستقلال للهند، والحياة الحرة الهانئة والشعوب الشرقية المظلومة كلها، وكلاهما (السيد والرحال) دخلا في حلقة من المثقفين الثوريين كانت تحرص على ان تميز اشتراكيتها، وتبحث عن تفسيرات ماركسية للاوضاع السياسية والاقتصادية والاجتماعية التي تواجهها، وتعمل على نشر ما تتوصل اليه من استنتاجات ويذكر الباحث عزيز سباهي ان هذه الحلقة تتكون من: (عبدالله جدوع، محمد سليم فتاح، مصطفى علي ابراهيم، ابراهيم القزاز، عوني بكر صدقي، عبدالحميد رفعت، عبدالفتاح ابراهيم، فاضل محمد البياتي، حسين الرحال، ومحمود احمد السيد)..

وما يميز هذه المجموعة هو عدم امتلاكها لبرنامج محدد تسعى لتحقيقه وفي الحالات التي بحثت فيها قضايا سياسية محددة تكشف عن سطحية في المعالجة ونرى ان الرحال في نشاطه داخل المجموعة ينصرف الى معالجة القضايا الفكرية العامة الى جانب محمد سليم فتاح بينما يتخصص محمود احمد السيد بالادب، بعد ذلك انتميا الى الحزب الوطني العراقي الذي يتزعمه (جعفر ابو التمن) وامتاز السيد بالتواصل مع الكتابة حتى وفاته بينما صرفت الرحال مشاغل الحياة ولم يعد يمارس نشاطا سياسيا ذا اهمية سوى نشاطات صحفية..

الملامح الفكرية والسياسية لمحمود احمد السيد

في اكثر من مكان يؤكد محمود احمد السيد دور العمال ويعدهم قوام الحياة، والسيد لم يكن اصلاحيا بل كان ثوريا يدعو الى التغيير الثوري حيث يقول: اذا كان في نيتكم يا قوم ان تنهضوا، فاهدموا بناءكم القديم المتداعي الاركان بدلا من الترقيع والترميم اقيموا بعده صرح نهضتكم الجديدة التي ترغبون، وهذا ماورد في مقدمة مقالة (الحكمة العجوز) الذي يسخر فيها من تلك الامثال التي تدعو الى الخنوع والسكينة واليأس والقبول بالامر الواقع.

لايترك محمود احمد السيد اية فرصة سانحة دون ان يتحدث عن الجانب الطبقي فنراه في قصة (بداي الفايز) وهي احدى قصص مجموعته (في ساع من الزمن) يتحدث عن فيضان الفرات يقول: الخطر كان اعظم مايكون في الضفة اليسرى من النهر، لان اهلها كانوا اقل تهديدا من جيرانهم اهل الضفة اليمنى وارضهم اوطأ من ارضهم وسدودهم اضعف من سدودهم،، ولايكتفي بهذه العمومية بل يفصل ويفرق بين الرؤساء في كلا الضفتين الذين يمتلكون الدور والاراضي وبين الفلاحين المعدمين، وفي مقالة (ادب اليوم) يدعو الى النبوغ في العلم والاجتماع قبل الشعر والخيال، ومواقف محمود احمد السيد في رواياته وقصصه ازاء معالجة الموضوعات الاجتماعية واضحة فهو يدعو الى:

١- حرية المرأة ومساواتها وبخاصة في اختيار شريك حياتها.

٢-محاربة الجهل، الذي جعل البلاد واهلها في اتعس الحالات.

٣-نشر العلم والاكثار من فتح المدارس.

٤-موقفه الطبقي من الاغنياء فقد جاء على لسان (حسن الفراتي) في رواية (مصير الضعفاء) يندر بين اغنيائنا من يهتم بالمصلحة العامة، وفائدة الوطن.

٥-دعوة لمقاومة المحتلين الانكليز بعد ان احتلوا البصرة فالقرنة فالعمارة عنوة، فتغير الحال وتنكرت الايام للناس، واقيمت المشانق للهاربين من صفوف الجيش.

٦-تناول السيد موضوعات من الريف العراقي.

٧-كان للسيد موقف واضح من الغرب ومن امريكا تحديدا، وهو متحيز لنضال الشعوب ضد المستعمرين، فهو مع السود ضد التمييز العنصري (الابيض) ومع الشرقي ضد الغربي.. الخ وموقفه من الغرب ليس مطلقا فله استثناءاته، نراه يميز بين فلاسفة الافرنج الذين يحتقرون الشرق والجنس الشرقي وبين غيرهم..

٨-السيد منحاز للاشتراكية ويراها تثبت دعائم الحياة الصحيحة الراقية ومبادئ التضامن العام واحترام الحرية الشخصية، وربط الفرد بالجماعة ارتباطا يكون به لهم ويكونون له.

٩-نسمعه وكأنه يصرخ انبذوا هذه التآليف الخرافية الجديدة من روايات بوليسية وقصص غرامية وحكايات خيالية اتتنا من بلاد الافرنج.

هل نتبين من هذا الحديث موقف السيد من الجديد؟ أم هو موقف من ادب الغرب الوافد الينا عن طريق الترجمة؟...

من يقرأ اعمال السيد يجد انه لاينفي كل جديد بشكل مطلق بل كان واعيا بالاتي لنا من الغرب محددا اياه بما هو طارئ على الثقافة وهو ينبذ كل قديم ويدعو الى حرق الكتب البالية العتيقة، وما يؤكد هذا الكلام قراءاته المتنوعة فقد قرأ لشارل وانير و(سر تطور الامم) لجوستاف نوبون والذي ينعته بأحد غلاة الوطنية الافرنجية ومن كبار اقطابها وقرأ اميل زولا وتولستوي تشيكوف وفولتير وغوستاف ونظريات دارون وجان جاك روسو وغيرهم كثيرين.

١٠-كان السيد يميل الى العلم والاجتماع قبل الشعر والخيال، اذ يقول: يجب ان يقرأ الشعب كتب الحقائق العلمية والعبر الاجتماعية قبل السفسطات والخيالات.

١١-والسيد كان مطلعا على الفكر المادي وقد وجدنا اشارات في قصصه ورواياته ففي قصة (جماح هوى) يشير الى احدى شخصيات هذه القصة وهو مدرس يعتنق المذهب المادي ويذكر ان د. شبلي سميل من اول الدعاة اليه في الشرق العربي.

١٢-كان السيد يروج للنضال ضد الاحتلال وهناك اشارت كثيرة في قصصه واعماله فيشير الى النشاط المعارض المنظم المعلن وغير المعلن يذكر مثلا الجمعية الاستقلالية التي تعمل في خفاء شديد.

١٣-ويشير الى ثورة العشرين التي انهت عهد الاحتلال البريطاني العسكري المباشر للعراق.

١٤-موضوع الحرب من المواضيع التي تركت بصماتها على قصص السيد نجد ذلك واضحا في (ابوجاسم)، (الدفتر الازرق) وغيرها من قصص مجموعته القصصية (في ساع من الزمن)..

المرأة في فكر ونتاج السيد

وعلى الرغم من ان المرأة في اعماله يظهره وجودها متناسبا مع وجودها في الواقع العراقي، فمثلا لم تظهر في (مصير الضعفاء) الاّ في نهاية الرواية، والسيد مولع بترميز شخصياته بالحروف وكذلك بعض الامكنة وبخاصة الشخوص النسوية كما في قصة (رسالة هجر) حيث نقرأ لترافقني الى حيث نتنزه في (ص) او حدائث (ك.ر) وفي قصة (شرق الهوى) يرمز للفتاة النبيلة بالحرف (س) دون ان يكون هناك مسوغ فني حيث نرى الكاتب في مكان اخر يذكر اسم الشخصية الصريح (سليمة احسان) ، ولا يهمنا ان يكون هذا الاسم صريحا ام مستعارا، ولم يقتصر استخدام الحروف على النساء والمكان بل تعداه الى الرجال ايضا فهو يستخدم الحرف (ف) رمزا لفتى قبيح فقير في تهذيبه، وهذا كله ليس بمعزل عن طبيعة العلاقات السائدة وتأثير الرقابة الاجتماعية والسلطوية.

ويعالج في قصصه قضية محو العار وتطهير العرض من الدنس كما هو الحال في (نكتة العمامة) والتي تتركز على حكاية شعبية معروفة ربطها بموقف الغرب من تلك العادة التي تعبر عن بدوية الفرد العراقي التي تدفعه لارتكاب جريمتين قبل ان يتحقق من صحة المعلومة ولكي لايقال له ان في عمامتك نكتة سواء، وهي قصة ساذجة لم تضف شيئا جديدا للحكاية الشعبية ولم يوظفها توظيفا فنيا وفكريا اكثر مما هي عليه، ويرسم لنا السيد صورة المرأة العاهرة التي لم تخلق بغيا ولم تكن سليلة عائلة فاسدة بل كانت سيدة طاهرة عفيفة مطلقة ثم تجعلها الظروف وهجر حبيبها لها بشكل مفاجئ تنحدر باتجاه الخمرة والتدخين ويرينا من خلالها بيت الدعارة كفضاء انتقالي هذا النموذج من النساء يتجسد في شخصية عاتكة في القصة التي تحمل الاسم نفسه، وفي قصة (الذكرى) يرينا المرأة الريفية ذات الوشم الكثير والخلاخل من الذهب والاساور والضفائر، كما يتناول شخصية الراقصة والمرأة المخدوعة والمطلقة.

وفي الجانب السياسي تبنى الرحال والسيد قضية المرأة ضمن نشاط المجموعة التي كانت تجتمع في غرفة محمود احمد السيد في الحيدرخانة ولكنهم دخلوا معركة تحرير المرأة وكرسوا لها معظم نشاطهم الفكري والصحفي دون ان يرسموا لهم خطا واضحا لمعركتهم او غاية سياسية ينشدونها من ورائه، كان كل مايشغل بالهم هو ان ينتصفوا للمرأة ويهاجموا قيما واعرافا تهضم حقوقها ودون ان يفكروا بردة الفعل واثارها، ولكن ينبغي القول ان تبنيهم لهذا الموضوع في ذلك الوقت يعد جرأة منهم ويضعهم في مصاف الرواد المدافعين عن حقوق المرأة العراقية في مجتمع سادت فيه العلاقات الاقطاعية وشبه الاقطاعية ونمط عيش هجين في المدينة وما تفرضه هذه الانماط من علاقات اجتماعية وبخاصة العلاقة بين الرجل والمرأة، ويرى السيد ان المرأة في الرواية والواقع مظلومة مستلبة الحق كهؤلاء العمال وهذا الفهم الذي يجمع بين اضطهاد المرأة الاجتماعي وبين اضطهادها الطبقي العام يدل على وعي السيد المبكر لهذه القضية المستعصية.

محمود احمد السيد مترجما

يرى محمود احمد السيد ان من واجب الادباء ان يدخلوا القصة الى مكتبتنا عن طريق ترجمة مختارات من الاداب المختلفة وبخاصة الاداب الشرقية من روسيا وتركيا، متحفظا عل نقل القصص الافرنجية بسبب الاختلاف النفسي على حد تعبيره، وقد مارس الترجمة عن التركية، ونشاطه في هذا المجال اتسم بالمنهجية وضمن اختيارات تتوافق وتوجهه الفكري والسياسي، فنراه يسبب اختيار قصص رشاد نوري لترجمتها وذلك لكونه نزاع في قصصه الى الحرية معبودة الفريق الناهض من الشعوب الشرقية المكدودة في هذا العصر، نزاع إلى هدم التقاليد البالية، نزاع الى شن الغارة الشعواء على المحافظين الراجعيين، وهكذا يمكن القول ان السيد كان منسجما مع روحه الشرقية ومع عصر العشرينيات والثلاثينيات من القرن الماضي حيث الجهل والتخلف والامية السائدة في المجتمع ومن الصعب استثناء المثقفين عن عموم السكان بل ان المثقف كان يعيش ازدواجية جديدة متأتية من الصراع بين الثقافة الجديدة التي تلقاها عبر علاقاته واطلاعه على حضارة الغرب وثقافته والاقتناع النظري بمنطلقاتها وبين موروثه الثقافي الاجتماعي التاريخي الكامن في بناء شخصيته وبما ان السيد يجيد اللغة التركية فقد اقدم على ترجمة بعض القصص التركية لرشاد نوري ولأرجمند اكرم وترجم تلخيصا لرواية (البعث) لـ(تولستوي) وامتازت تجربة السيد في الترجمة بما يلي:

١ يلجأ لتقديم تلخيص للرواية محاولا اعطاء فكرة عما يدور من احداث ثم يصور لنا طبيعة الشخصيات وحركتها داخل الفضاء الروائي.

٢-يختار القصص التي لها مساس بواقع المجتمع العراقي.

٣-نجد الحس الطبقي واضحا في اختيار قصصه المترجمة ويمكننا الامساك بتحيزه للمظلومين وابناء الطبقات المعدمة وكذلك الموقف ضد الطبقات الارستقراطية.

٤-نجد ان محمود السيد يخرج عن النصر المترجم ويطرح رأيه ثم يستطرد في توضيح موقفه من احداث الرواية ويتمادى اكثر من ذلك فيقطع حديثه ويدعوك للعودة للقصة لمعرفة الواقع بدقة: اشير عليك بقراءة نصبها لتطلع عليها بأوضح مظاهرها.. ولنعد ويعود الى الترجمة النصية للرواية..

٥-نلاحظ بين طيات القصة او الرواية المترجمة مجموعة من الاراء النقدية اذ لم يقتصر عمله على ترجمة العمل مختصرا فقط بل يحاول تحليل وتقويم الموضوع فكريا وجماليا فهو يقول على سبيل المثال لا الحصر في تقييمه لرواية (البعث) لـ(تولستوي) واني لاسخر من هذه الخاتمة حقا..

يرى محمود احمد السيد ان من واجب الادباء ان يدخلوا القصة الى مكتبتنا عن طريق ترجمة مختارات من الاداب المختلفة وبخاصة الاداب الشرقية من روسيا وتركيا، متحفظا عل نقل القصص الافرنجية بسبب الاختلاف النفسي على حد تعبيره، وقد مارس الترجمة عن التركية، ونشاطه في هذا المجال اتسم بالمنهجية وضمن اختيارات تتوافق وتوجهه الفكري والسياسي، فنراه يسبب اختيار قصص رشاد نوري لترجمتها وذلك لكونه نزاع في قصصه الى الحرية معبودة الفريق الناهض من الشعوب الشرقية المكدودة في هذا العصر، نزاع إلى هدم التقاليد البالية،

العراقيون
من زمن التوهج
العدد (1678)
السنة السابعة
الخميس (17)
كانون الاول2009

قراءة جديدة في ادب السيد القصصي

د. شجاع العاني

قررت وانا اعيد قراءة آثار السيد القصصية ان انحي جانبا ما قيل بصدد هذه الاثار وما اثير حولها من احكام لم تنج من اثار الايديولوجية والعاطفة الوطنية لكي اضع هذه الاعمال في مكانها الطبيعي من تطور الادب القصصي في الادبين العربي والعراقي الحديثين وبدا لي من الوهلة الاولى ان محمود احمد السيد لم يكن نفسيا، مؤهلا لكتابة القصة، وبخاصة الطويلة منها، فالتشاؤم والتبرم من الاوضاع الاجتماعية، والانفعال السريع بسبب هذه الاوضاع كان واضحا في مقدماته واحاديثه، على ان السيد، والحق يقال، كان متواضعا في تقديم قصصه للقراءة، وغالبا ما وصفها بالصور والاحاديث، كما وضع توصيفا لروايته المعروفة جلال خالد متواضعا في رواية موجزة، مما دفع كلا من انور شاؤول ثم الطاهر وغيرهما من النقاد ان يستنبطوا حقيقة عدم اهلية السيد الفنية والنفسية لكتابة عمل طويل، ولا اراني اكشف عن مستور حين اقول ان الدافع الاول وراء الكتابة القصصية لدى جيل سليمان فيضي والسيد، لم يكن فنيا جماليا، بل كان وطنيا، ويتضح هذا الامر في ماكتبه استاذ السيد وزميله حسين الرحال في تقديمه لعمله القصصي الاول في سبيل الزواج حين ناشد القراء ان يشدوا من ازر الكاتب ويتغاضى عن الجانب الفني، ولايلتفتون الى اسلوب الرواية ووضعها ونسبتها الى الروايات الراقية.. بل الى الغاية التي وضعت من اجلها، ويبدو ان المفكر والمناضل الماركسي الرائد كان حريصا على الخطوة التأسيسية لادب عراقي قصصي حديث متأثرا بالاداب العالمية من جهة، وبما كان يصدر عن مصر وسوريا من اعمال قصصية رائدة منتظرا – اي الرحال– ان تعقب الخطوة التأسيسية خطوات اخرى على طريق تحديث هذا الفن، ولايبدو على القراء انهم سمعوا نصيحة الرحال، فقد اشار السيد نفسه الى النفور الذي قوبلت به روايته الاولى قائلا ولم الف رجلا يشير عليّ بشيء سوى الكف عنه وتركه بتاتا.

يبدو ان قراءات السيد الاولى في الادب القصصي، كانت قراءات بسيطة وساذجة، وانه لم يقرأ في الحقيقة الاولى من حياته الفنية، اي عمل روائي وقصصي عالمي شهير، فروايته في سبيل الزواج جاءت على غرار ادب الرومانس الذي عرفته اوربا في عصور الاقطاع، هذا النثر الخيالي الذي يلبي الرغبة الشعبية الى الخيال الخارق والذي كان وسيلة المتعملين والقراء – سيما النساء– لقضاء الليل، وقد التقت هذه النزعة الخيالية التي توفر عليها نثر (الرومانس) مع بعض حكايات السمر العربية القديمة، الحافلة هي ايضا بالنزوع الى الخيال والمعبرة في حبكتها عن الرغبة اكثر من تعبيرها عن الواقع، ولم تكن القصتان مصير الضعفاء والنكبات ١٩٢٢، بأحسن من سابقتها فنيا، وقد حفلت قصص الكاتب في هذه المرحلة بالاغلاط اللغوية والنحوية والاملائية، وكان اسلوبه متعثرا، كانت الخطوة الرائدة على طريق الفن القصصي، التي خطاها السيد هي روايته (جلال الخالد) التي اصدرها الكاتب عام ١٩٢٨ وهي تستمد اهميتها من كونها رواية واقعية، وربما كان بطلها هو الكاتب نفسه الذي سافر الى الهند واقام فيها، او زميله ومعلمه الذي ترك اثرا كبيرا في فكره السياسي والاجتماعي (حسين الرحال) وربما اصاب حنا بطاطو كبد الحقيقة حين قال ان بطلها مزيج من محمود السيد نفسه ومن الرحال، ميّز مايعود الى المؤلف الملامح المهتزة والرومانسية التي عرف بها السيد، وتبدو اهمية الرواية الفنية، اذا ما قورنت برواية اخرى صدرت في العام نفسه وهي تشترك مع جلال خالد في كونها رواية مثاقفة، او ما أطلق عليه بـ(الرواية التعليمية) هي رواية، عجائب الزمان في صرح عروس البلدان، لأكوب جبرائيل المحامي، فهذه الرواية وان تحلت ببعض الشيء من السجع، الاّ انها، لم تستطع ان تقترب من الفن القصصي الحديث، وظلت ترسف في اغلال النثر العربي القديم، ويبدو ان وعي السيد الفني قد تطور كثيرا في هذه الحقبة، وقد عكست مقدمته لروايته هذا التطور برغم ان الكثير من الخصائص الفنية التي وجدت في اعماله ومازالت تشوب روايته، وبشكل خاص اعتماده على تقنية البانوراما او الخلاصة، فهو يقدم لنا الاحداث في ملخصات تقريرية سريعة، كما هو الامر في قصة (الصعود الهائل) اذ يقول الراوي: زفت نادين الساقطة الى برنار الشريف وبعد ثلاثة اشهر قتل والد برنار دون ان يعرف القاتل، وبعد اربعة اشهر اغتيل برنار دون ان يعرف من المغتال وبعد اشهر غدت البقية الباقية من تلك العائلة شذر مذر، وبعد سنة اصبحت نادين ربة القصور والدور وذات الاصحاب والاخدان، وابوها لوردا عظيما شريفا يشار اليه بالبنان، وانه لشيء كبير الدلالة على صعيد ماهو فني ان يذيل الراوي قصته بملاحظة تقول حكى لي هذه الحكاية صديقي حسين بك الرحال، وقد تلقاها من مصدر وثيق في رحلته الى اوربا، واذا كانت قصة (الصعود الهائل) المنشورة في (النكبات) تنتمي الى الواقعية النقدية، فان مفهوم القاص للفن القصصي مايزال عند حدوده الدنيا، فعبارته التي اعقبت المتن تشير الى انه يفهم الواقعية على انها نقل واستنساخ للواقع، كما ان لغة القاص في هذه المرحلة لغة تمت الى الموروث باكثر من صلة وتبتعد عن لغة القصة الحديثة، في (جلال خالد) يتطور مفهوم السيد للفن القصصي وللواقعية معا فقد اشار في مقدمة الرواية قائلا ليس في هذه الصورة المختارة.. ماهو واقع من اوله الى آخره بهذا التسلسل المنطقي والاطراد الموجودين في حوادثها، وليس في هؤلاء الاشخاص الذين يظهرون.. من عاش بالاسم الذي اسميته به، وفي المحل الذي احللته فيه وصورة الحياة التي البسته ثيابا واستعرت له عناصرها واسبابها، وهكذا بدأ السيد مدركا لطبيعة الفن القصصي على انه (تخييل) وان اعتمد على مرجعيات واقعية، وان الواقعية لاتعني مطابقة الواقع واستنساخه حرفيا، بل ان الواقع لايلبث ان يتغير ما ان يوضع في اطار الشكل الفني، لقد وصف بطاطو الرواية بأنها الاولى في العراق، وانها مبنية على وقائع حقيقية، وقد استخدمت – اي الرواية– لترسيخ معتقدات جديدة ولعبت دورا في التشكيل الايديولوجي للشباب العراقي، ويبدو ان حسين الرحال، كان يدرك، وهو يدفع السيد في طريق القص، ان السرد وسيلة فنية صالحة لنقل الافكار الجديدة التي كان يود نشرها بين الاجيال الجديدة، ولذا لم يكن يبالي كثيرا بما هو رفيع فنيا بقدر مايهمه الفكرة التي ينهض بها القص، ويوصلها الى جمهور القراء.

> **وصف محمود السيد نفسه بأنه ليس اديبا ولا فنانا محترفا، بل محب للادب والفن اللذين رأى فيهما رمزا للجمال ويبدو ان الكاتب لم يكن صبورا بما يكفي لكتابة رواية فنية مطولة ومتكاملة برغم ما حققه من تطور فني، بدليل ان الرواية المختصرة هذه، اعتمدت في جزئها الثاني – على ايجازها- على اسلوب الرسائل..**

وصف محمود السيد نفسه بأنه ليس اديبا ولا فنانا محترفا، بل محب للادب والفن اللذين رأى فيهما رمزا للجمال ويبدو ان الكاتب لم يكن صبورا بما يكفي لكتابة رواية فنية مطولة ومتكاملة برغم ما حققه من تطور فني، بدليل ان الرواية المختصرة هذه، اعتمدت في جزئها الثاني – على ايجازها– على اسلوب الرسائل.. جلال خالد فتى وطني قومي متعصب الى حد ما، يسافر الى الهند ويلتقي بفتاة يهودية في الباخرة، ويحرك في هذا اللقاء افكاره ومشاعره معا، يقيم في الهند ويلتقي بالشيوعي (سوامي) الذي يبدد الكثير من افكاره القومية المتعصبة ويطلعه على الفكر الماركسي، فكر الطبقة العاملة، ويفهم من ذلك ان هناك ماهو اوسع من القومية، وان تحرر العمال كفيل بتحرير المرأة ومن المعروف ان تحرير المرأة هو الموضوع الذي اتخذته روايات المثاقفة التعليمية محورا لها، وفضلا عن هذا وجد جلال خالد في هذا الفكر ما يحرر جموع الفلاحين في الريف من النير الذي يكبل اعناقهم، لكن القارئ لهذه الرواية لايجد فيها ماقيل سابقا من انها اول رواية تحليلية فنية في العراق، بل هي في رأينا رواية مثاقفة وتنشئة فكرية وان تجاوزت في فنيتها مثيلاتها من الروايات العربية التلقينية مثل (علم الدين) لعلي مبارك، وتخليص الابريز في علوم باريز للشيخ رفاعة الطهطاوي وحديث عيسى بن هشام للمويلحي، والرواية الايقاظية لسليمان فيضي، وعجائب الزمان لاكوب ميخائيل.

في مجموعته القصصية (في ساع من الزمن ١٩٣٥) نقف على تطور واضح في ادوات السيد القصصية كما نعثر على قصة يتجاوز فيها واقعيته النقدية الى واقعية جديدة اطلق عليها فيما بعد (الواقعية الحديثة)، تلك هي قصة (بداي الغايز) التي يمكن عدها اول قصة ناضجة فنيا، استطاع السيد من خلالها ان يضع القصة العراقية على طريق الحداثة، ويتبدى التطورفي قدرة القاص على تحليل نفسية الشخص الرئيسة (بداي) الذي يستفزه ضرب رئيس له، واشارته الى ثأره لدى (جسام) الذي قتل اخاه (عباس) وتوانى هو عن الاخذ بثأره ويدفع عامل الكبرياء لدى بداي الى عبور النهر في اثناء الفيضان والتربص بخصمه لغرض قتله واستيفاء دم اخيه لكنه وهو يتربص (بجسام) يكتشف ان جساما واسرته يستعدون لعبور النهر الى الجانب الاخر، بعد ان داهمهم خطر الفيضان، ويحمل جسام وزوجه اولادهما واغراضهما بصعوبة ليعبرا النهر، ويراهما بداي فيستل خنجره من حزامه استعدادا للثأر، وهنا يحدث التحول الذي ينكره الفن القصصي مالم يكن القاص قادرا على اسباغ شرعية فنية عليه، وهو تحول يشبه الى حد كبير التحول في قصة موباسان (في ضوء القمر) الذي عده النقاد تحولا مسوغا، فبداي ما ان يرى خصمه يحمل طفليه على كتفيه حتى تتغلب العاطفة الانسانية عليه لتغلب عوامل الكبرياء والثأر، عندئذ يعيد خنجره الى حزامه، وتقدم من خصمه ليساعده في حمل اطفاله وعبور النهر الى الضفة الاخرى، مؤجلا ثأره الى لحظة اخرى يكون فيها جسام اقدر على المواجهة، بعيدا عن اطفاله وزوجته المنكوبين بالفيضان، وما ان ينتهي امر الفيضان حتى يتقدم جسام وعشيرته يطلب الصفح والصلح مقدمين اخت جسام زوجا لبداي، وتتم المصاهرة، ويتم الصلح! وهكذا ففي حين تكتمل ادوات القاص الفنية في رسم الاجواء وتحليل الشخصيات، ينجلي وعيه للواقعية على انها تغليب لما هو انساني ولما هو خير على قوى الشر والظلام في النفس الانسانية، وهو مبدأ اساس ميز الواقعية الاشتراكية عما قبلها من الواقعيات، وايا كان ضعف قصص السيد فنيا، وايا كانت الثغرات فيها، فأن لمحمود السيد فضل الريادة في هذا الفن في العراق، وفضل التنبيه على دوره واهميته في الاصلاح ونشر الوعي بين القراء، وهي لعمري مهمة لانستطيع ان ندرك مدى صعوبتها الاّ اذا وضعنا انفسنا في زمان ومكان القاص والاّ اذا وضعنا قصصه في اطارها التأريخي.

صورة تجمع حسين الرحال ومحمود احمد السيد

عراقيون
من زمن التوهج
العدد (1678)
السنة السابعة
الخميس (17)
كانون الاول2009

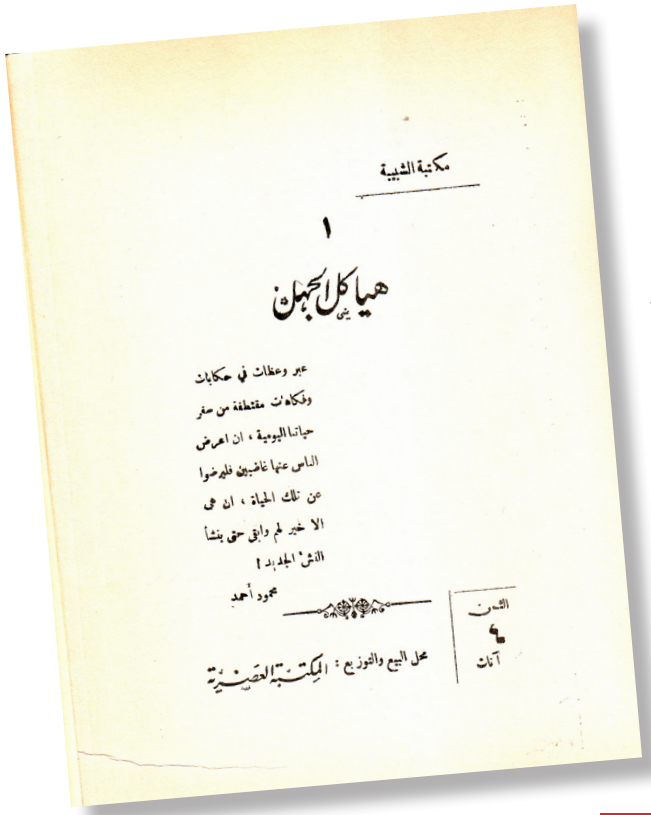
مكتبة الشبيبة

١

هيا كل الجهلة

عبر وعظات في حكايات
وفكاهات مقتطفة من صفر
حياتنا اليومية ، ان اعرض
الناس عنها غاضبين فليرضوا
عن تلك الحياة ، ان هي
الا خير لم وابق حتى ينشأ
الشئ الجديد !

محمود أحمد

الثمن ٦ آنات

محل البيع والتوزيع : المكتبة العصرية

من اوراق محمود احمد السيد

رفعة عبدالرزاق محمد

محمود احمد السيد.. اسم لامع من اسماء اليقظة الفكرية في تاريخ العراق الحديث، كان قطب الرحى في المشهد الثقافي العراقي في عشرينيات القرن الماضي، غير ان نسيانه- وما اكثر الاسماء التي ننساها- كان المشهد الاكثر سوادا في حياتنا الادبية المعاصرة التي تريد قطع الصلة بالبناة لاسس البناء الثقافي العراقي، فلا بناء سامق بلا اسس قوية، هذا ما نعترف به ونؤمن به دوما، وفي السطور التالية ما التقطناه من اخبار محمود احمد السيد في سياحة سريعة في صحفنا القديمة..

× نشرت جريدة العراق ليوم ٢٤ نيسان ١٩٢٣، مايلي:

(نشأ في هذه الربوع نشء (لذا) تطلع الى بيئة فرآها منعمة بالنقائص فهاله الامر وصار يشكو من هذه الحالة الصعبة، وعلت تأوهاته، فمن كان منهم ذا يد في الكتابة، تناول القلم وصار يسمعنا اناته خلال سطوره، واننا لانبرئ انظار الشباب من الحاجة الى الحنكة والخبرة، ولكن مايبعث على الامل ان هذا الشاب تنبه للحياة وفي تنبهه ثبت حياته وسوف تحنكه الايام فيقتل الدهر خبرة.

ومن بين الكاتبين الشبان هنا محمود افندي المدرس الذي تصدى لتأليف بضعة روايات سبق لنا ان ذكرناها، واهدى الينا الجزء الاول من مجموعة اخذ في تأليفها و نشرها وهذا الجزء الموسوم بهياكل الجهل يتضمن نقد بعض النقائص التي يراها الرائي في المجتمع العراقي، ولقد رأينا الكاتب والحق يقال تدرج في مرقاه الكتابة فتمتنت عبارته وحسن اسلوبه فنسأل له اطراد النجاح)..

×تعرض الكاتب والصحفي الكبير ابراهيم صالح شكر في حزيران ١٩٢٣ الى اعتداء بالضرب من قبل اشخاص بسبب مقالاته النقدية اللاذعة في جريدته (الناشئة)، وقد استنكر جمع من الادباء والصحفيين ذلك، ومن ذلك البيان الذي نشرته جريدة (العاصمة) في ٢٢ حزيران ١٩٢٣:

(استنكر انا وجماعة من اصدقائي حادثة الاعتداء على الاديب الفاضل صاحب الناشئة الجديدة الغراء، وانه ليؤلمنا جدا ان يكون ذلك نتيجة لجرأته الادبية وقيامه بالواجب نحو الحرية الفكرية في العراق).

فاذا كان هؤلاء الاشخاص الاشرار يلعبون هذا الدور الشنيع في الناس، فهم يمثلون الحطة الاخلاقية والجبن والنالة علنا في الجادة العمومية فلا يغضب الجمهور لذلك ولايتحرك ذابا ومدافعا عن رجل صحافي وطني صميم او صائنا كرامة الادب الذي يمثله، فعلى حريتنا الجديدة العفا والسلام، اما والله فلئن لم يرَ هؤلاء الرقعاء المتشردون مغبة فعلتهم التي فعلوها جزاء صارما وعقابا اليما، يعلمهم الفرق بين التجاوز على الشرف والحرمة الادبية وبين التطاول على امثالهم من الحشرات الأدمية ليكون بلدنا يباح فيه كل امر يندى له جبين الانسانية ويا للعار وشر العار؟!!

محمود احمد

×كيف تعرف السيد على الاستاذ حسين الرحال.

تناولت المؤلفات التي عنت بنشأة الفكر التقدمي والاشتراكي في العراق الدور الكبير الذي لعبه محمود احمد السيد وحسين الرحال في تأسيس اول جماعة (يسارية) عراقية واصدارهما مع آخرين اول جريدة (تقدمية) وما الى ذلك، غير ان بدء صلة السيد بالرحال بقيت غير واضحة، وقد وجدنا قصة تعارفهما في الكراس الذي كتبه السيد في آذار ١٩٢٣ بعنوان (القلم المكسور) ضمن سلسلة اراد السيد اصدارها باسم (مكتبة الشبيبة) فقال:

((١٥ كانون الثاني ١٩٢٠، زرت صديقا لي من اصدقائي الكثيرين- وما اقلهم في الحقيقة- فوجدت عنده شابا عليه مسحة غريبة، كان قد قدم حديثا من اوربا)..

وبعد ان عرفه بيّ وعرفني به اسماه لي قائلا : (ح، ر).

قلت: سمعت بهذا الاسم ولقد كنت اعلم عنه انه كان في طلب العلم بأوربا على اني مع ذلك لا اعلم سبب قدومه.

فأجابني الشاب قائلا: السبب واضح، الحرب مازالت قائمة على قدم وساق، وان كان الظاهر لايدل عليها، وكان بالطبع غير مستحسن بقاؤنا في عاصمة الالمان، وهم الان في عاصمة جنوبية جديدة.

وبعد برهة وجيزة كان كل منا يحاور صديقا الى جانبه، وبينما انا في تحاوري مع احدهم، اذ سمعت (ح.ر) يتكلم بصوت عال فأنصت فسمع آخر جملة من كلامه.

قال (كل شعور يأتي من الدماغ الى الحواس فهو كاذب، وكل حس يصدر من الحواس الى الدماغ حسٌ صادق)..

سمعت ذلك فقلت في نفسي انها لكلمة ناضجة ويظهر انه نجح في ذهابه الى تلك الديار.

وقد قاطع افكاري رفيقي الذي كنت احادثه، فعدت الى مجرى حديثنا السابق، وعما قليل تغير نوع الكلام بيننا اذ دخل بطور عام جله بحث عن انحطاطنا واسباب الرقي..

ويستمر هذا الحديث الشائق مع حسين الرحال، وعندما سأله محمود احمد السيد: كيف السبيل الى ايجاد امة جديدة لنا راقية؟.

اجابه بعد ان نظر اليه هنيهة: اترضى يا اخي ان تبني لك قصرا في مستنقع؟ بالطبع لا، اذن كيف ترضى ان تشيد اركان امة جديدة وسط محيط ملؤه الخرافات والعادات السقيمة؟.

قلت الان فهمت ما قصدت ورميت اليه، الا اننا سائرون رويدا رويدا نحو هذه الغاية، ونحن لاشك لاتصلح لنا في مثل هذه الظروف الا طريقة الاعتدال.

فقهقه ضاحكا ثم قال: هنا، هنا بيت القصيد، هذا هو الهدف الذي ارجو ان اصيبه، اخواني ضللتم الطريق السوي، لا اعتدال هناك ابدا، اما عندكم فالافراط محرم والتفريط حرمان والاعتدال مصيبة تحسبونها سعادة.

قال ذلك وبأسرع من لمح البصر قام مودعنا وخرج وقد تركنا وراءه مفكرين مضت ثلاثة ايام، وفي اليوم الرابع وانا جالس في متنزه (جسر مود) تذكرت تلك المسامرة التي حدثت بيننا وقد قرأت في احدى الصحف.. وتجاوزت حالات الى الذيل لارى التوقيع فقرأت (ح.ر)..

×كتاب مفقود للسيد

سيظهر قريبا.. مذكرات شاب عراقي.. بقلم السيد محمود احمد البغدادي، مؤلف روايتي (في سبيل الزواج) و(مصير الضعفاء) وكتاب (النكبات)..

فقلت هذا الاعلان من الصفحة الاخيرة من كتاب محمود احمد السيد (السهام المتقابلة) الصادر عام ١٩٢٢ في مصر في المطبعة الرحمانية وبطلب من المكتبة العربية في بغداد، والكتاب مجموعة من الرسائل المتبادلة بين المؤلف وصديقه عوني بكر صدقي وهو من الشخصيات الادبية المنسية ومن رواد الفكر الحر في العراق، وشقيق الصحفي والكاتب القدير لطفي بكر صدقي، لم يصدر كتاب (مذكرات شاب عراقي) الذي اعلن عنه لسبب لانعرفه، كما لا نعرف مصيره واين حلت مخطوطته، فهل من ينير لنا السبيل في هذا؟.

×السيد ومغنيات بغداد

في اعداد السنتين الاولى والثانية (١٩٢٩-١٩٣٠) من مجلة (الحاصد) مقالات شائقة لمحمود احمد السيد، تدل على انه كان طرفا مهما في الحياة الادبية يومذاك، ومن الطريف ان موضوعات قلمه مختلفة، ومن ذلك ما نشره في هذه المجلة القيمة التي اصدرها الاديب العراقي الرائد انور شاؤول (السنة الثانية، العدد (٢٠) في ٤ كانون الاول ١٩٣٠) بعنوان (مغنيات بغداد) فقالت المجلة في تقديم المقالة:

(اعتادت صحفنا ان تنشر الفصول المسهبة عن العظماء ولكن قلما كتب الكتاب شيئا عن مظاهر حياتنا الشعبية المرتبطة بالسواد الاعظم، وفي هذا الفصل الممتع الذي خطته ريشة الكاتب المعروف محمود افندي احمد، دليل قوي على ان الكاتب المجيد واجب عليه الاّ يترك ظاهرة اجتماعية ذات مساس بالحياة اليومية الا ويشبعها درسا وتمحيصا.

ومما ذكره السيد في مقالته هذه الفقرة الطريفة:

(في مسرح تتألق فيه المصابيح الكهربائية، الملونة حوله كأنها الجواهر، شهدت مغنية يكاد عرضها يساوي طولها ذرعا، فهي كرة من شحم او كيس من القطن، مفعوم، تغني غناء عراقيا تقليديا يضحكها مع انك تبكي، ويبهجها مع انه محزن في اغلب الاحيان، قلت وانا ازكيها ولا اذمها بل اسجل الحقيقة والواقع، انها لاتفهم ما تنشدنا، فقال صديق كان بجانبي، نعم فأن احدهم سألها ان تفسر له اغنية من هذه الاغاني التي كررتها الف مرة ومرة على عشرين مسرحا منذ سبع سنوات فعجزت عن ذلك، وانها لتملك فما ما خلقت الابتسامة الا لتشرق منه وعليه، ولكنه بذلتها سماحا فأفسدت ولم تصن نعمة من نعم الطبيعة جدير بالمرأة ان تعدها لساعات السحر والنصر المبين)..

ثم يستمر المقال في استعراض مغنيات بغداد آنذاك: زكية، منيرة، سليمة، سلطانة، جليلة، وقد حفظ لنا في هذه النصوص صفحات فنية ومفيدة للمؤرخ الاجتماعي فما احوجنا ان نراها في مجموعة كاملة لها!.

×تكريم فاطمة رشدي

في نيسان ١٩٣٠ زارت بغداد، الممثلة المصرية الكبيرة فاطمة رشدي، ونجد في جريدة (البلاد) ليوم ٤ نيسان ١٩٣٠ خبرا بأن حفلة اقامها عدد من الادباء الشبان لتكريم هذه الفنانة القديرة في (فندق مود) في اليوم السابق والقى كلمة الترحيب الافتتاحية المحامي مكي الجميل، واعقبه الاستاذ محمود افندي احمد والاستاذ سلمان الشيخ داود ثم القى اكرم افندي احمد قصيدة رائعة واعقبه حسن افندي الخطيب بكلمة جميلة فالاستاذ عبدالمسيح وزير..

×رحلة الى طهران

في ربيع عام ١٩٣٢ سافر محمود احمد السيد الى طهران سائحا، وعند عودته الى بغداد نشر في مجلة (الحاصد) مقالا عنوانه (مشاهد من طهران) يوم ٢٨ تموز ١٩٣٢، قدمته الحاصد بما يلي:

(عاد من ايران بعد زيارة قصيرة حضرة صديقنا الاديب الاستاذ محمود احمود فلم يشأ ان يحرم قراء الحاصد مما علق في خاطره من مشاهد وذكريات فكتب النبذ الطريفة عن طهران جارتنا)..

×خبر وفاته

نشرت مجلة (الرسالة) المصرية ليوم ١٣ كانون الاول ١٩٧٣ (العدد ٢٣٢) خبرا تحت عنوان (وفاة اديب عراقي في القاهرة) فقالت:

توفي محمود احمد السيد سكرتير مجلس النواب العراقي يوم الجمعة الماضي (العاشر من كانون الاول)، بمستشفى الروضة على اثر عملية جراحية خطيرة ظل ثلاثة اشهر يكابد غصصها بعيدا عن وطنه، غريبا عن اهله حتى قضى نحبه المحتوم بين عناية اطبائه وعطف اصدقائه، وقد اوصى وهو في سياق الموت ان يدفن في القاهرة، والاستاذ الشاب احمد محمود السيد (لذا) كان من السابقين الاولين في ميدان الاقصوصة وقد بدأ شوطه فيها بداية حسنه، وهو وتيمور وصاحب الحاصد البغدادية طلائع النهضة القصصية في العالم العربي، رحمه الله رحمة واسعة وعزى فيه الشباب العراقي خير العزاء..

عراقيون من زمن التوهج
العدد (1678)
السنة السابعة
الخميس (17)
كانون الاول2009

محمود أحمد السيد

بين الابداع التجاوزي والفكر الواقعي النقدي

د. صبيح الجابر

توطئة

المتابعة المتأنية لمسيرة الادب الحديث في البيئة الثقافية العراقية، والنظرة المتأملة في الابداع العراقي، تكشفان لنا قضيتين اساسيتين، تتصلان بالناتج الابداعي العراقي، النثري والشعري:

الاولى: ان الفن القصصي بجنسيه (القصة والرواية) بدا في العراق بداية تجريبية متواصلة، وكفوءة على يد محمود احمد السيد عام ١٩٢١م، وعلى خلفية الحرب العالمية الاولى، ونتائجها وبعد مضي ثلاث سنوات على اخماد نيرانها المدمرة، وكانت البداية لهذا الفن، تاريخية، وليست فنية متكاملة.

الثانية: ان قصيدة الشعر الحر بدأت فنيا في العراق وكانت ايضا بداية متواصلة، وواثقة، وحققت انتصارا غيّر مسيرة الشعر العربي، من حيث البنية الفنية، والموضوعية الى حد ما، منذ العصر الجاهلي وحتى الان، وهذه البداية انطلقت ايضا على خلفية الحرب العالمية الثانية، ونتائجها المدمرة، وعلى يد مجموعة من الشعراء العراقيين، الرواد وفي مقدمتهم السياب، عام ١٩٤٨م وبعد مضي ثلاث سنوات ايضا على اخماد نيران الحرب.

ولكن بالنسبة للقضية الاولى، قضية الفن القصصي، قد تكون بدأت بدون مقدمات نظرية او فنية- ادبية، وبدون منهجية فكرية او ادبية واضحة، ولذلك شهدت عثرات كثيرة.

اما بالنسبة للشعر، فقد سبقت عام ١٩٤٨م، محاولات جادة ولكنها غير متواصلة، وبدأت في العراق ايضا، وقبل ثلاثة قرون بما كان يسمى بقصيدة (البند) التي انتهت في وقتها، ثم محاولات العصر الحديث، على يد علي احمد باكثير، والدكتور لويس عوض، التي لم تحدث تغيرا واضحا، على قصيدة الشعر العربي، لعدم مواصلتها، ولعدم منهجيتها، واصرارها الجدي على التغيير، وربما لعدم مواءمة الظروف الموضوعية لنجاحها مثلما توفر للسياب وغيره من ظروف موضوعية وذاتية دعت للتغيير، وسهلت عملية ناجحة.

ان تجربة العراق، الادبية والفنية في العصر الحديث، متميزة عن غيرها من تجارب البلدان العربية المماثلة، وقد تكون الظروف القاسية، التي عاشها العراق المعاصر، وما مرّ به من كوارث وحروب مدمرة في العصر الحديث، والتغيرات الكبيرة التي حصلت في العالم، والنتيجة التي خرج بها بعد الحرب الاخيرة في عام٢٠٠٣م، وسقوط النظام الفاشي قد تكون قادرة على افراز واقع جديد، وناتج ابداعي جديد، مغاير لما هو سائد ومألوف، وقد يكون المخاض عسيرا، وربما يتجاوز السنوات الثلاث، التي مر ذكرها في القضيتين السابقتين، وربما تشهد مسيرة الادب في العراق انتكاسة خطيرة.

السيد وحركة الخطاب الادبي والسائد الفكري

فتح السيد عينيه، وعقله، على واقع فكري، وادبي راكد ومتخلف ايام الحرب العالمية الاولى، وما تمخض عنها من نتائج، وكان ما شب عليه السيد، وتعلمه لايلبي طموحاته وتطلعاته، الفكرية والادبية، التي تجاوزت محيطه، فقد كان السيد ابنا لامام جامع الحيدر خانه، وكان جل ماتعلمه لايتعدى علوم الدين والفقه واللغة العربية، والادب الشعري والنثري، والحكايات الشفوية والمكتوبة الشائعة والمنتشرة، في وقت نشطت فيه ماكنة الطباعة، التي راحت تنشر الكتاب، والمجلة والصحيفة، وفي وقت غزت فيه الافكار الجديدة، والابداعات الادبية والفلسفية والسياسية بعض البيئات الثقافية في مدن العراق، وخاصة العاصمة بغداد، حينذاك كان السيد اكثر اقرانه، وابناء جيله حساسية ازاء ثقافة عصره، وكان يمتلك روحا متوثبة، وساخطة، ورافضة ومتمردة..

في الوقت ذاته، كان هذا الفتى ممتلئا بالسائد التقليدي كثقافة الحكايات، وادب الخيال، المعتمد اصلا على بعض الخرافات كما كان اسير العادات والتقاليد التي ما عادت تنسجم مع تطلعات السيد، وافكاره الطموحة، وقد كشف في السنة الثانية، بعد صدور (في سبيل الزواج عام ١٩٢١م) وفي مجموعة (النكبات) كشف طبيعة ذلك الخطاب السائد، وحاول ان يعرضه على القارئ بشكله المهلهل، وبفقر موضوعه وسذاجته..

وقد ذكر السيد في (السهام المتقابلة) وتحديدا في الرسالة الثانية المعنونة (المجتمع والكتّاب) تصنيفا للكتاب العراقيين، وقال: اولئك على فريقين: فريق اغرته الدنيا بزخرفها، فأدهشه الاصفر الرنان، بصولته، فوهب كل ماعزّ في حياته في سبيل الحصول على امنية، فهو معذور فيما يكتب، وغير مسؤول عما يقول، لانه طوع ارادة ارباب المال، واسير احسانهم.

وفريق اضلته الخرافات، وحالت بينه وبين الحقائق الاباطيل، فهو لايريد ان يكتب الاّ مايكون موافقا لمشارب ابناء القرن الاول للهجرة.

فما ذكره السيد هنا، عبارة عن تشخيص نقدي لعلل اجتماعية، واخلاقية، وسياسية قد اصيب بها بعض الكتاب، وهي في وعي السيد تنم عن صراع، وجدل ساخن بين مايراه في الواقع، وبين رؤيته وتطلعاته لما يجب ان يكون عليه الخطاب الادبي، والاجتماعي والديني والسياسي، وبالتالي، فهو صراع بين القديم الراسخ والجديد المتحرك (الديناميكي) الذي يعاني مخاضات عسيرة.

وفي موضوعات (مكتبة الشبيبة) وفي حديثه عن (ادب اليوم) نراه ينتقد بألم وحرقة مجمل الواقع الثقافي، والخطاب الادبي، ويقول: ظهرت الجرائد، واذا في صدر كل واحدة منها قصيدة خيالية لشاعر قديم او انشودة تصويرية لشاعر جديد (.....) ويضيف: انعقدت النوادي، واسست المحافل، واذا على كرسي كل واحد منها شاعر متحمس يلقي قصيدة وطنية، ربما كانت – ان لم اخطئ التخمين- اطول قليلا من يوجع الجوع.

ويختتم بالقول: كفى كفى، كفانا هذا فلنفق، ان الشعب امي يجب ان يتعلم الالف باء، ان الشعب جاهل يحتاج العلم الصحيح، وان الشعب جائع ايضا يريد خبزا، وانتم تقدمون له فاكهة، وفاكهة في غير اوانها.

وفي موضوع (الحكمة العجوز) نجده ينتقد المجتمع بألم وحرقة، ويناشد قائلا:

اذا كان في نيتكم ياقوم ان لاتنهضوا، فاهدموا بناءكم القديم (....) واقيموا بعده صرح نهضتكم الجديدة، التي ترغبون.

ونراه في الوقت ذاته يشخص العلل وينتقدها ويشير الى العلاج، السبب الاكبر، بل العامل الوحيد في ذلك، هو لان الفساد لم يحدث قبل ساعة حتى يزول بساعة، ولكنه قد كان حادثا منذ عصور، فاخذ مكانه من دماغ الشعب، وحل محله من نفوس الناس اجمعين.

ان ماكان يراه السيد سوى عالم عراقي واسع، شديد الضبابية والتخبط كان قد خرج للتو من حرب كونية، ووقع تحت هيمنة استعمار جديد، لم يألفه من قبل، ولم يكن يسمع عنه شيئا، خرج من تسلط عثماني متخلف، ووقع تحت تسلط غربي شديد العنجهية والجشع،، وبذلك انتصبت امام السيد مهمتان اساسيتان:-

الاولى: محاربة الاستعمار الجديد، والثانية، محاربة الجهل والتخلف والامية، وذلك الكم الهائل من العادات والتقاليد البالية، المتراكمة على مدى سنين طويلة.

غير ان المهمة الاولى، قد حسمت بقيام الدولة العراقية الحديثة والموحدة، اما المهمة الثانية، فهي لاتقل خطورة عن المهمة الاولى، وهي التي شغلت بال السيد طوال حياته، واستحوذت على جل جهده ووقته، ودفعته الى التصدي لها، ومحاربتها، بكل ما يملك من قوة وارادة، وقد اختار السيد سلاح الكتابة لمحاربتها، (كتابة القصة والرواية

محمود احمد السيد في القاهرة مع نظيلة الحكيم

عراقيون
من زمن التوهج
العدد (1678)
السنة السابعة
الخميس (17)
كانون الاول2009

والمقالة) وكان هدفه الاسمى ايقاظ المجتمع العراقي، ودفعه لتشخيص امراضه وعلله بعقل ناقد ومفتوح، واصلاح ما امكن اصلاحه من خراب، وتوجيه المجتمع العراقي باتجاه البناء التحتي المعقول (الدولة والاقتصاد وعلوم التقدم والتطور) والبناء الفوقي (الوعي والافكار والفنون والاداب والسياسة)..

ان السيد عندما استخدم الخطاب الاعلامي – الصحفي، والفن القصصي، كان بحاجة الى ان يمتلك شروطها الفنية، ومقوماتها الفكرية الضرورية، فاذا قلنا بأن السيد قد نجح في خطابه الاعلامي – الصحفي، رغم اندفاعه العاطفي وضعة اداته الفكرية، الاّ انه لم يوفق في ادائه الادبي، الذي يحتاج من الشروط الفنية والفكرية الشيء الكثير، خاصة في تلك المرحلة من تاريخ العراق الثقافي في عشرينيات القرن الماضي.

بدايات ساذجة لاهداف طموحة

انطلقت بدايات تجربة السيد القصصية والروائية من خلال اصداره رواية (في سبيل الزواج) عام ١٩٢١م، ورواية (مصير الضعفاء) عام ١٩٢٢م، ومجموعة (النكبات) القصصية عام ١٩٢٢م، وهي بدايات محكومة بطبيعة الظروف التاريخية والثقافية، وبطبيعة مستوى التفكير والوعي النقدي السائدين آنذاك.

ولما كنا ندرك طبيعة هذه الظروف، فلا غرابة من ان يأتي حكم الدكتور علي جواد الطاهر، والدكتور عبدالاله احمد على هذه البدايات، باعتبارها بدايات ساذجة.

حقا، كانت هذه البدايات ركيكة، وهي قريبة ايضا من اسلوب المقامة الوضعية، والحكايات الساذجة، التي كانت شائعة في ذلك الوقت، وقد اعاد السيد روايتها باسلوب اطلق عليه، الاسلوب القصصي.

لكن شهادة المفكر حسين الرحال، الصديق الحميم للسيد، التي جاءت في مقدمة رواية (في سبيل الزواج) كشفت بجلاء طبيعة العلاقة المقطوعة بين الفن القصصي الجديد، وقت ذاك، والمثقفين العراقيين، ونظرة الجفاء والتجاهل التامين، لهذا الفن، اذ كتب الرحال يقول: ومما يؤسف له، ان قطرنا (قطر العراق) ليس له نصيب مما ذكرناه ابدا (يقصد الفن القصصي) فالمهذبون عندنا يكتفون بقراءة مايردهم من التأليف والروايات الافرنجية او العربية، المصرية او السورية، ولم يلتفت احد منهم الى تقليد الافرنج او المصريين او السوريين.

في هذه المسألة الجديرة بالاهمية، ولا خطر لاحد منهم ان يتطرق لهذا الموضوع، فيكتب او يؤلف فيه ما استطاع الى ذلك سبيلا.

ان هذا الحكم، الصادر عن ابرز المفكرين العراقيين يؤكد خلو البيئة العراقية من هذا الجنس الادبي ذي النظريات العالمية النقدية، وخاصة خلوها من كتابات ابنائها في هذه المرحلة المبكرة من تاريخ العراق الحديث.

اما ماكان موجودا منها، وما قرأه السيد واعتمد عليه في مرجعيته، في الكتابة القصصية في هذه المرحلة، فهي نماذج تسير في اتجاه روايات الغرام، والمغامرات، او ما قدمه مؤلفا او مترجما، المنفلوطي، وجبران خليل جبران، وهي النماذج الفضلى، التي

يبدو ان السيد كان يرى من خلال ممارسة فعل كتابة الرواية والقصة، تحقيق هدف سام كان يسعى اليه، وان الغرض الاساسي من هذا الجنس الادبي، هو انه وسيلة يخاطب من خلالها جمهرة القراء بأفكاره وآرائه الاصلاحية شأنها في ذلك شأن المقالة الصحفية، والخطبة الوعظية اي انه اراد من القصص ان تكون اداة اصلاح.

يحسن تقليدها لتحقيق غاياته.

هذه النماذج القصصية، سواء أكانت تلك التي كتبها السيد ام تلك التي ترد الى العراق هي نماذج ساذجة، ولكن برغم سذاجتها الفكرية والفنية فانها تعكس واقع هذه الفئة من ابناء الجيل الجديد من العراقيين، الذين استقبلتهم الحياة مع مطلع القرن العشرين، كما تشير مقدمة المجموعة الكاملة.

وهذا ما اكد عليه السيد ذاته في (هياكل الجهل) عندما خاطب اقرانه العراقيين: اتركوا الخيالات، وتمسكوا بالحقائق، ثم الفوا او اقرأوا الكتب التي تعلم (أبناءكم) طرق الحياة في جيل اليوم والاجيال الآتيات.

واذا اردنا ان نقرأ مبنى الرواية الاولى للسيد (في سبيل الزواج) الصادرة في القاهرة عام ١٩٢١م، فاننا لايمكن ان نقرأها بلغة القرن الحادي والعشرين، بل علينا ان نعود بها الى ماقاله ذات مرة مايكوفسكي: ماكان صالحا في مكانه وزمانه قد يكون غير صالح في غير زمانه وغير مكانه..

وقد تكون قراءته هو لهذه الرواية اصدق من اي حكم آخر، فهو القائل عن رواية (في سبيل الزواج) بأنها: كانت على هيأة مشوشة، وان تلك الهيأة سببت الانتقادات الكثيرة.

لكنه كان يرى في داخله رغبة طاغية، وتوقا شديدا، لمواصلة كتابة الرواية، استجابة لما يجيش في داخله من طاقة تعبيرية هائلة، يريد من خلالها ايصال افكاره واهدافه وجلها اصلاحية، وايقاظية ووعظية،، مشدودة الى ارضية ثقافية مازالت حتى الان تقليدية، وتنهل مما هو شائع في محيطها الثقافي من افكار ورؤى سطحية قصيرة المديات، انتجت بعد روايته الاولى، رواية (مصير الضعفاء) ومجموعة قصصية (النكبات)، الامر الذي جعل الدكتور علي جواد الطاهر، والدكتور عبدالاله احمد يطلقان على نتاجاته القصصية خلال هذه الفترة، بالقصص الساذج، وذلك في مقدمة مجموعة السيد التي جمعها وقدم لها الدكتوران الفاضلان.

يبدو ان السيد كان يرى من خلال ممارسة فعل كتابة الرواية والقصة، تحقيق هدف سام كان يسعى اليه، وان الغرض الاساسي من هذا الجنس الادبي، هو انه وسيلة يخاطب من خلالها جمهرة القراء بأفكاره وآرائه الاصلاحية شأنها في ذلك شأن المقالة الصحفية، والخطبة الوعظية اي انه اراد من القصص ان تكون اداة اصلاح.

والسيد بهذا التوجه، وبهذا المسعى الحريص، كان قد اضاع الجانب البنائي لفن الرواية والقصة، وخرج بحصيلة الموضوع، الذي لم يحقق غاياته في الوصول الى القراء، ولم يحدث خلخلة في التفكير الجمعي، المقتنع بالسائد والمألوف، وخاصة بالشعر، وموضوعاته الهزيلة، ولغته الهابطة في ذلك الوقت، والموروثة اصلا في عصور الانحطاط والتردي، التي دامت اكثر من ثلاثة قرون، انطلاقا من شعور السيد بأن له رسالة في الحياة يلتزمها في ما يكتب، منذرا ومبشرا، وتتلخص هذه الرسالة في دفع الظلم، وبيان براءة الضعفاء، وفضح الشرف المزيف. وخاصة في رواية (مصير الضعفاء)..

ان الفجوة الكبيرة بين روايات السيد والمجتمع العراقي –آنذاك- حسب اعتراضاته هو في اكثر من مكان دعته الى التوقف عن كتابة الرواية او القصة، الاّ انه اندفع باتجاه كتابة المقالة او اصدار الكراريس، وخاصة فيما اسماه (مكتبة الشبيبة) وبلغة قريبة الى القص.

ومما زاد من اهمية هذه المقالات طريقة الكتابة المشتركة بين محمود السيد وحسين الرحال، لما يجمع بينهما من اسباب الاتفاق في الرأي وطبيعة الموضوع، الذي يستدعي اللغة الفرنسية، التي تتوافر لحسين الرحال، والتمكن من اساليب اللغة العربية الذي يتميز به محمود..

ان فترة توقف السيد عن كتابة الرواية، كانت فترة تأمل ومراجعة لما يتفاعل حوله من خطابات ودعوات، تجديدية او تقليدية، ولما يحصل من صراع بين القديم، المتمرس خلف الابواب والعقول الموصدة، وبين الجديد، كما كانت فرصة لفتح النوافذ صوب ما ينتج في العالم من ثقافات وافكار ورؤى تجديدية، تتسابق في مابينها، لاثراء واغناء العملية الابداعية، التجاوزية، سواء أكان ذلك فيما يتعلق بالناتج الابداعي الادبي، أم بما يتعلق بالناتج الفكري او الفلسفي او الايديولوجي السياسي عموما.

من بندلي جوزي الى محمود احمد السيد

اهدى محمود احمد السيد مجموعته القصصية الرائدة (الطلائع) الصادرة عام ١٩٢٩ الى مجموعة كبيرة من رجال الفكر والادب في داخل العراق وخارجه، ومن هؤلاء البرفسور بندلي جوزي استاذ الادب العربي في الجامعة الروسية في باكو، فأرسل جوزي الى الكاتب العراقي الكتاب التالي الذي نشرته جريدة (الايام) البغدادية لصاحبها الراحل عبدالقادر البراك بمناسبة ذكرى رحيل السيد لعام ١٩٦٢.

باكو في ٢١-٥-٢٩

سيدي الفاضل المحترم

اشكر لكم هديتكم الفاخرة (الطلائع) التي تكرمتم بها عليّ، وقد قرأتها يوم وصلتني بلذة لم اعهدها في نفسي حين كنت اقرأ القصص العربية المترجمة عن اللغات الافرنجية، وما ذلك الاّ لان الاشخاص والحياة التي تدور حولها قصصكم وتصورها هم لحم من لحمنا وعظم من عظامنا والحياة حياتنا، وكم كنت تمنيت ان يقوم بيننا رجال يصفون لنا حياة عيسى وعبدالله وزينب واسماء وعقليتهم ونفسيتهم لنعرف عنهم ولو قدر ما نعرف عن (بول) و(جورج) و(رزوا) الخ.

ناهيك عن وصف حياتنا الاجتماعية ونزعاتنا السياسية، بغير ذلك مما لايحسن فهمه وتصويره الاّ من ولد وعاش في محيطنا العربي، فثابروا على عملكم الذي شرعتم فيه لاني ارى فيكم كما يقول الاوربيون (عرقا قصصيا) ثم وسعوا دائرة قصصكم او عالمكم واطرقوا امراضنا الاجتماعية التي لاتزال تنخر عظامنا كالتعصب الديني وحالة المرأة العربية الخ.

آسف جدا، ان الظروف لم تساعدني يوم كنت في عاصمتكم في ١-٢٤ كانون الثاني ١٩٢٨ على التعرف بكم واوّد من كل قلبي ان يتاح لي ان اقضي بقية العمر بينكم في عاصمة المنصور، في خدمة الوطن العربي وابنائه فعسى ان اوفق الى ذلك بمساعدة المحبين والاصدقاء.

ارجو ان تقرأ تحياتي. كتبت اليوم الى الاستاذ خليل سكاكيني في القدس ان يبعث اليكم بنسخة من كتابي (من تاريخ الحركات الاشتراكية في الاسلام) لتطلعوا عليه ثم تنقدوه باخلاص وتعملوا على نشره ان رأيتم في نشره فائدة تذكر ولكم الشكر سلفا من الداعي لكم بالنجاح والتوفيق.

ب. جوزي

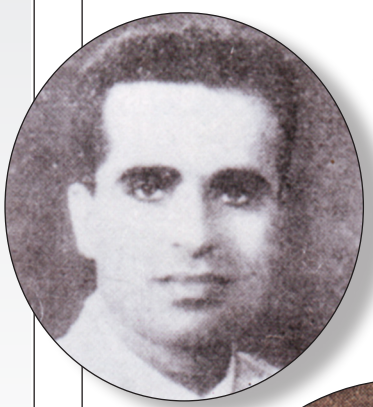

العراقيون
من زمن التوهج
العدد (1678)
السنة السابعة
الخميس (17)
كانون الاول2009

محمود السيد . . النشأة والتكوين
١٩٠٣ ـ ١٩٢١

د. عبد الإله احمد

في بغداد، بالدار المرقمة ٨٣- ٢٢٤ من محلة (باب الشيخ) المقابلة لحضرة الشيخ عبدالقادر الكيلاني نفسه، اقامت اسرة دينية من الطبقة الوسطى انتقلت اليها من (عنه) وعرفت بآل المدرس بعد ان كانت تعرف بـ(بيت وريد). وتضم الدار التي كانت تسكنها الاسرة في بغداد ثلاثة قبور يمكن ان تكون قبورا لاجدادهما.. وكان السيد احمد بني السيد عبدالفتاح احد افراد هذه الاسرة مدرسا في جامع الحيدرخانة يلقي دروسا في التفسير والحديث والفقه (الحنفي) وقواعد اللغة العربية في نحوها وصرفها واشتقاقها وما يتصل بذلك من استطراد واستشهاد بآدابها ومأثور كلامها مما هو شرط في نهج الدراسة، وكان السيد احمد إضافة الى ذلك اماما لجامع الشيخ عبدالقادر الكيلاني.

يعرف السيد احمد بدماثة خلقه ورحابة صدره، ولطفه وتبسطه وتواضعه وتسامحه وادبه الجم، ولم تؤثر عنه العجرفة او ثلب الناس وكان على الرغم من حسه الرقيق قادرا على كبت غضبه وكتمان تأثره، متمكنا من الظهور امام الناس بمظهر المتماسك لدى المستفزات.

وفي ليلة الاثنين ٢٩ رجب من عام ١٣١٩ للهجرة (٤ ماس ١٥- ١١- ١٩٠١) الميلادي تزوج السيد احمد عواشة بنت الحاج مستان وفي صبيحة يوم الثلاثاء لـ١٦ خلون من صفر ١٣٢١ مارس ١٩٠٣ رزقا ولدهما البكر محمود وكانت الاتعاب العصبية التي تعانيها الام تكدر من جو البيت وتعكر من صفوه، مما يحمل مبكرا الابناء والبنات مسؤولية العناية بانفسهم وبالبيت، كما ان الطابع الديني الذي يسود الاسرة يلزمها الظهور بمظهر الوقار والتزمت مما قد يثقل على الاطفال ويحملهم اكثر مما تحتمله سنهم..

وتتميز محلة باب الشيخ عن سائر محلات بغداد بصفات خاصة من العنف والحدة: انها قائمة حول (الشيخ) ويعد الشيخ عبدالقادر الكيلاني اماما يزوره اهل بغداد واهل العراق، وكثيرون من الهند وافغانستان..

ويبقى من هؤلاء الهنود والافغانيين، ولاسيما من الفقراء، عدد يقيم في جامع الشيخ، وفيما حول جامعه، ينضمون الى عدد عديد من الفقراء والمتسولين والمعوزين، وقد يحتال بعضهم ويرتكب الشعوذة باسم الدين.

والى جوار هؤلاء المدقعين، والى جوار البيوت المتواضعة، كان يعيش ال النقيب بقصورهم الشامخة، واموالهم الطائلة، ومواردهم التي لاتنفد، ومكانتهم العالية وما يصيبونه باسم هذه المكانة.. وكان لاولادهم الخدم والحشم، وكل رعاية، حتى اذا رآهم الصبي (الحساس) وعرفهم عن كثب تألم كثيرا، وقارن ورأى نفسه مهضوما وقد يحس بانه احق منهم بالاموال وبالعناية.

وآل النقيب، وان كانوا اهل دنيا، كانوا يلقون الاحترام والتقدير من كل جهة، وحتى باسم الدين، واليهم تجبى موارد الشيخ عبدالقادر وهي غزيرة.

ان الزائر الهندي، الثري الهندي، ليغدق العطاء، وربما القى على ضريح الشيخ الاف الروبيات فتتساقط فتجمع فتسلم الى آل النقيب.

ويتألم لذلك ابن امام الجامع الذي يحس بأن اباه احق بهذه الاموال.

ان بيئة باب الشيخ لابد من ان تكون حادة، وانها لتتميز اكثر من سواها بالتناقض الطبقي، وبالاساطير والخرافات والتقاليد والعادات، وكل ذلك يترك اثاره العميقة في النفس المرهفة الحساسة جدا، والذهن الجوال المتوقد، وبقدر مالهذا من مضمار ومنغصات، له فوائده في بعث المرء على التساؤل والتفكير والاطلاع- والتمرد..

وبيئة محمود كما رأينا- بيئة نادرة، صالحة في اعداد الاديب، فان بيتا مثل بيت (المدرس) يؤلف مدرسة اولى للتعلم المبكر الذي لم يكن ليتهيأ للاطفال الاخرين.

لقد كان السيد احمد مدرسا طبيعيا لابنه في البيت، وكانت مكتبه مكتبته طبيعية له، وفي هذه المكتبة امات الكتب العربية في شتى نواحيها، القرآن، التفسير، الحديث، الفقه، تاريخ الطبري والسمعودي وابن الاثير، مقدمة ابن خلدون، البيان والتبيين للجاحظ والامالي للقالي والكامل للمبرد، ادب الكاتب لابن قتيبة المعاجم وشروح الالفية والمغني.. المعلقات ودواوين فحول الشعراء: المتنبي، ابي تمام البحتري، الشريف الرضي.. لامية الطغرائي وكتب صفر ومخطوطة اخرى في كل باب، حتى في الخرافات.

وكما يفيد الابن من ابيه في البيت، يفيد منه في جامع الحيدر خانة حيث يقعد للدرس وحيث المكتبة، وحيث يقعد السيد محمود شكري الالوسي- وهو المعدود في علماء عصره واساتذته..

هذه بيئة علمية ادبية نادرة تقرب من الصبي الناشئ اهم وسائل المعرفة في عصره، وتجعله ينتفع بها عن قصد وعن غير قصد في اوائل نشأته وفي شبابه.

اما عن الدراسة الرسمية، فلم يكن في العهد العثماني من المدارس ما يؤبه له ويجدر ذكره كانت مدرسة واحدة، اسمها المدرسة السلطانية تقع في باب الشيخ، ولم يكن الناس ليقبلوا عليها، بل انهم كانوا يعيبون التلاميذ ويعيرونهم ويرمونهم بشتى انواع السباب والوصمات ويطلقون عليهم اسم (مكتبلية) و(مكتبلي) تعني لديهم اشياء رديئة كثيرة، ولابد من ان يكون الاب الذي يدخل ابنه هذه المدرسة، على حظ وافر من العقل والتسامح والنظر الى المستقبل، لانه يتلقى الاهانة في ولده وفي نفسه..

وقد دخل محمود المدرسة السلطانية في الصف الاول، وكان معه فيمن معه عبدالله جدوع وابراهيم عبدالجبار القزاز..

كانوا في الصف الاول سنة ١٩١٠ – ١٩١١ تقريبا.. وهم يحملون ارقاما حسب تسجيلهم، ومحمود اسبق من ابراهيم وعبدالله في التسجيل، ويجلس هو وابراهيم متأخرين في الصف، ويتلقى التلاميذ الدروس باللغة التركية، حتى درس الدين واسمه : علم حال، وتشرح اللغة العربية بالتركية- وان كان المعلمون عربا..

وتوطدت منذ الصف الاول صداقة متينة بين محمود وابراهيم وعبدالله: كانوا بارزين في الصف، متفوقين في الامتحانات، معهم تلميذ اسمه عبدالجبار هو الاول، يليه عبدالله (الثاني) ومحمود (الثالث) وابراهيم (الرابع)..

ومدير المدرسة (عبدالمجيد) شخص عصامي، نظم الدراسة احسن تنظيم، ولم يرحم احدا يخالف النظام وقد اوجد نظام (الكشافة) في المدرسة، وكان يرعى المتفوقين ويعطف على التلاميذ الفقراء ويخصص لهم جزءا من راتبه، ولكن هذا المدير واولئك المعلمين لم يستمروا، فلقد اخذ المعلمون الاصليون الى (الجندية) وحل محلهم معلمون جاءوا اخراجا من الجيش من غير اللائقين بحمل السلاح..

واصبح المدير (صالح افندي) وهو مريض ضعيف، وبين المعلمين معلم كان (مضحكة) ويروي القصص الفاسقة.

حتى اذا انتهت السنة الرابعة، ونجحوا، علموا ان مدرسة للعرب في الكرخ، تلقى فيها الدروس كلها باللغة العربية، ماعدا دروسا بالفرنسية والتركية، فانتقل اليها عدد من التلاميذ وبقي محمود في مدرسته حتى عام ١٩١٦ – ١٩١٧ حين دخل الانكليز بغداد، فتعطلت الدراسة.

وفي عهد الاحتلال، اسست دورات منها دورة للتعليم واخرى للهندسة، تستغرق الدراسة فيها ستة اشهر، دخل محمود الدورة الهندسية الثانية، ويبدو ان تلميذ الدورة كان يتقاضى (٣٠) روبية في الشهر..

كان مدير الدورة قاسم العلوي، (وقد تخرج محمود في سنة ١٩١٨ وعين في ادارة الري في الهندية.. وذلك في عهد الحاكم السياسي تيلر.. وكاتبه صيون زلخة، وفي منطقة (الجورجية) برئاسة المهندس أغوب.

وكان يتقاضى (١٢٠) روبية في الشهر، ولكنه استقال بعد ستة اشهر من تعيينه، كان غير راضٍ عن شهادتها كأنه يراها (عادية) ويقول: انني محتاج الى العلم فهذه الشهادة التي لدي عادية لاخير فيها، وهل من مدرسة جامعة في مدينة متقدمة من مدن العالم تقبل شهادة خريج مدرسة.. مدتها بضعة اشهر؟!.

ويبدو انه بقي – بعد ذلك- من غير وظيفة او عمل، باحثا عن ملء الفراغ بالقراءة والكتابة واي شيء..

ولم يجد ما يملأ به الفراغ ولا مايرضي كبرياءه بل انه لم يكن ليرتاح لوجود الانكليز في بلاده – وهو الذي شب على الشعور بكرامة العرب وعلى الرضوخ لتعاليم الاسلام وقرأ جريدة القبلة وكتاب ثورة العرب.

لقد كان يفضل الانضمام الى جمعية سرية ويشارك المواطنين الغيارى في خدمة القضية، ولكنه لم يستطع ان ينفذ شيئا في سبيل تحقيق رغبته هذه، وسلم العطالة واستبد به الضيق والوحدة، واشتد ما يحسه في نفسه من طماح وحب للمعرفة والاطلاع على مايمكن الاطلاع عليه من جوانب العالم، فبدأ يفكر بالسفر، وكانت الهند انسب ما استقر عليه رأيه.

كان خاله (حسين) في الهند، مدرسا

عراقيون
من زمن التوهج
العدد (1678)
السنة السابعة
الخميس (17)
كانون الاول2009

للفارسية والعربية في الكلية العثمانية التابعة لنظام حيدر اباد – دكن، فاتخذ من رؤيته سببا للسفر، وقد تكون هذه الرؤية سببا ظاهريا للسفر، وان تكن هناك عوامل حقيقية، غير رؤية الخال.

ومن الراجح ان سفره وقع عام ١٩١٨-١٩١٩، اذ سافر الى البصرة، ومنها ركب الباخرة الى الهند، فبلغ بومبي، ونزل عند السيد ابراهيم النقيب، فجاء خاله من اجله، ولكنه سأله:

-هل لابيك رضا في سفرتك هذه؟.

فتألم محمود من السؤال- لانه كان حساسا جدا، وبقي مقيما لدى السيد ابراهيم النقيب..

كان محمود يعرف شيئا من اللغة الهندية قبل ان يسافر، ثم قويت هذه المعرفة ايام اقامته حتى ليمكن القول انه يعرف الهندية جيدا، وانه كان بمستطاعه ان يقرأ الجرائد وان يستمع الى المحاضرات.

وقد وصف بومبي اكثر من مرة ومن ذلك:

قدر لي ان ارى الهند، تلك البلاد الضخمة العظيمة التي اكبر تاريخها القديم فلاسفة العصر الحاضر، وكثير من كتابه المشاهير.. زرتها بين عام ١٩١٨-وعام ١٩١٩.. وكان دخولي اليها من فرضتها الكبيرة.. فرضة بومباي..

وبومباي.. مدينة ضخمة.. مالها غزير يملأ خزانات البنوك والشركات الاجنبية والاهلية والتجار والرأسماليين الاجانب والهنود كذلك، لكن الشعب الذي زاد على المليون محروم منه..

اقام في الهند اشهرا او حوالي السنة.. ولاشك في ان اقامته هذه دعته الى التساؤل والمناقشة والمقابلة، وعلى اعادة النظر في مكونات شخصيته وانها وسعت من افقه وزادت من معرفته واطلعته على عالم جديد له تقاليده وأساطيره وله افكاره وعقائده، وارته حركات جديدة، وقربته من مذاهب جديدة، وزادت من انسانيته وخففت من عصبيته المحلية او الدينية.

شهد التناقض الطبقي في الهند على اشد مما شهد في العراق الثراء الفاحش والفقر المدقع، وتنبه المظلومين لحقهم، وتيقظ العامل، ولمس عن قرب مساوئ الاستعمار وتحسس الوطنيين وهبوبهم للمقاومة ففي هذا التاريخ كانت الهند تغلي، وفيها طلائع حركات عمالية واضرابات على اصحاب رؤوس الاموال، وانها لتعد نفسها للاستقلال والسيادة.

ومن معدودي رجالها، ابو الكلام آزاد وغاندي ومتلك، وطاغور، وعلقت في ذهن محمود صور منها صورة ابي الكلام ازاد وهو يخطب، وعاد معجبا بنهرو.

حين عاد من الهند عام ١٩٢٠ وجد بغداد تغلي والخطباء والشعراء والكتاب يعدون للثورة على الانكليز، وكان جامع الحيدرخانة مركزا للاجتماعات الجماهيرية والتظاهرات الوطنية، وكان الشيخ محمد ممهدي البصير يلهب الالوف بخطبه الحماسية وقصائده الوطنية.

لم ينتم محمود الى الحركة اول الامر، ولعله، كان يائسا متشائما لا ينتظر للثورة كل مايريده الوطنيون من نتائج وثمرات، بعد ان سقطت دمشق واحتلها الفرنسيون ولكنه لم يلبث ان انتمى، وجميل من رجل كان يراسل جريدة (الاوقات البصرية) ان ينضم الى الثورة، وخطب في الجماهير وفي جامع الحيدر خانة، وكان يعجب اذ يخطب، وان كان يلقي خطبه مكتوبة وليس ارتجالا، وقد دعا في خطبه الى التآلف والتآزر..

لم يواصل الخطابة وقد يعلل هذا باليأس وليكن، فقد كانت تعتري الرجل، حالات من التشاؤم يلوذ معها بالعزلة، ولكن يجب الا نلح كثيرا على الوطنية وما اليها، لان محمودا لم يكن قد استقر على شيء، ولان الاهواء والظروف كانت تتجاوربه وهو يبحث عن نفسه، والا، لما نشر في جرائد ذات صلة اكيدة بالاحتلال والمحتلين كجريدة الاوقات البصرية، وقد وقع ماكتب بتوقيع مستعار هو السياسي الصغير، ولاشك في ان اللجوء الى هذا التخفي قد يعني ان الكاتب لايريد لنفسه هذه المكانة، ولايرضى عن صلته بجريدة انشأها الانكليز يوم استولوا على البصرة.

وكان الامر ايسر لو لم يكتب في هذه الجريدة اشياء ضد التيار ومقالات لاترتاح اليها الجرائد الوطنية.

ويمكن ان نضيف في تعليل هذه الظاهرة صلته بآل النقيب.

وقال احد الذين ردوا عليه بصدد كلمة له بعنوان الحرب في العراق،، نحن واثقون بأن صاحب المقالة لم ينشرها بغضا للثوار ولا حبا بالبريطانيين، ولكنه اراد ان يختطف له قبعة (كلاو) لانه رأى بعض اهل المطامع يريدون ان يتقلدوا المناصب بناء على اظهارهم الخيالة على صفحات الجرائد واراد الاقتداء بهم فذهب طولا، وعدم معقولا.. ونشر فيها محمود في جريدة احتلالية اخرى هي (الشرق) وقد صدر عددها الاول في ٣٠ آب ١٩٢٠ وهي جريدة يومية سياسية تجارية ادبية لصاحب امتيازها حسين افنان..

نشر محمود مقالته الاولى في العدد الخامس ٣ سبتمبر ١٩٢٠.. ومن الممكن ان تفسر كتابته في هذه الجريدة بما قدماه بشأن جريدة الاوقات البصرية من عدم الاستقرار وعدم توضح الامر وتقرر المواقف وما الى ذلك، علما ان من الاشخاص الذين كانت الشرق تلتزمهم وتمجدهم طالب باشا النقيب، نقيب البصرة.. وزير الداخلية في الحكومة المؤقتة، حتى انها عندما رأت قرب تأسيس دولة عراقية جديدة، دعت اليه ورشحته الى عرش العراق.

واعتقد الناس ان طالب باشا يمثل السلطة (ذلك الوقت) وكان ميل محمود معه..

ولابد من النص على ان محمودا كتب في هذه الجريدة بتوقيع صريح، (س. محمود آل المدرس او س. م. أ آل المدرس) ولا صلة لما كتب بالسياسة وطنية كانت ام غير وطنية، ولاصلة له بطالب النقيب كأنه يكتب من غير وعي سياسي او انه يعد نفسه لاراء جديدة.

وكتب محمود – فيمن كتب- في جريدة العراق، الا ان التوقيعات المستعارة تضيع السلسلة على المتتبع.

ومن الممكن ان ترد اليه كلمة وردت في العدد الـ ١٩٦ من السنة الاولى ١٩٢٠ بعنوان: المدارس هي البيوت التي فيها روح حياتنا.. المدارس هي التي تعلمنا كيف نجاهد في سبيل النشوء والارتقاء.. المدارس هي التي ترشدنا الى التسلح بالاخلاق العالية.. كما قال الشاعر:

وانما الامم الاخلاق مابقيت
وان هم ذهبت اخلاقهم ذهبوا

وترشدنا الى رحمة شفعائنا واغاثة منكوبينا ونجدة فقرائنا..

بغداد/ ((ابن باب الشيخ)).

وكلمة اخرى بالتوقيع نفسه احتلت افتتاحية العدد ٢٨٦ ٦ آيار ١٩٢١، وكانت العراق قد اهتمت اهتماما شديدا بازمة السكن، فارسلت في احدى افتتاحياتها صرخة.. لم يجد ابن باب الشيخ الا ان يرسل في اثرها صرخة ثانية..

((اننا نرى بعض الناس ساخطين ناقمين، والبعض الاخر مستائين متألمين، كل ذلك على ما اصابهم، من الضيق العظيم الذي انتجته الحرب المشؤومة.. ازمة المنازل التي ظهرت بمظهر مهول مدهش دعا الى وقوع الرعب والخوف في قلوب السواد الاعظم من الناس..

ولقد كثر ضجر الناس وتزايد تململهم من ارباب الاملاك الذين هم مصدر هذه المشكلة واساسها حتى امتلأت الكأس وفاضت فقام عند ذلك بعض الرجال من ذوي الاصلاح وفي طليعتهم صاحب جريدة العراق الغراء الذي هو اول مسؤول عن هذه الامور..

وهنا اوجه خطابي الى ذوي اليسار وارباب الاملاك فأقول: لو ان واحدا منكم تخلى هنيهة من الزمن عن مركزه وطاف خلال صفوف السواد الاعظم.. لرأى ان في هذا المحيط ما لاي يحصى من انواع الشقاء الذي لم يترك بيتا الا حل فيه..

اما مسألة المنازل فهي وان لم تكن وحدها المصيبة الكبرى.. اما ان فقدت الرحمة من القلوب ولها كل بنفسه عن غيره، وبقي الحال على هذه الصورة ولم يجد الاهلون من يلتفت اليهم من ارباب الاملاك ومن على شاكلتهم فتلك مسألة لانستطيع التقول عنها، او التكهن بما تجره، وراءها من الويلات..

ومضى محمود آل المدرس يستعرض تاريخ الامة العربية، وكيف كانت متمدنة ثم تأخرت ثم بدأت تستيقظ. وتحدث عن سعيها لبلوغ ضالتها (المنشودة) يقول.. فيه شاعرنا الوطني الحر:

ذاك يوم هو المنى والتمني
لازمانا مضى ودهرا تولى

ومع ان محمود لايميل الى الصخب ولا الى الاكثار من الاصدقاء فقد كان له عدد قليل من الاصدقاء هم انموذج الشباب المثقف المستنير النشط، منهم عبدالله جدوع، (صديقه الحميم) وعوني بكر صدقي، وسليم فتاح..

كان عوني طالبا في دار المعلمين الابتدائية، وكان محمود يتردد عليه زائرا، وفي احدى زوراته، (عام ١٩٢٠) عرف مصطفى علي (وهو طالب في الدار).

وفي هذه السنة نفسها عرف (ح.ر).. ولهذا التعارف اهميته في ذكر محمود وفي عقيدته واهتمامه، وقد رأينا عمق التأثير وشدة الاستعداد للتأثر في نبرة الكلمات التي سطرها. و(ح.ر) هذا هو حسين الرحال والصديق الذي وقع التعارف في بيته هو (موسى الالوسي)..

توطدت الصداقة بين محمود وحسين ثم عبدالله وعوني، وكانوا يلتقون كثيرا ويتناقشون طويلا، واكثر ما يقع اللقاء في غرفة لمحمود في جامع الحيدرخانة او في مقهى ناصر الصالحية، او في الباب الشرقي.

درس حسين الرحال الثانوية في استانبول ثم سافر الى المانيا، وكان في المانيا ابان الحرب العالمية الاولى، وشهد الثورات التي قامت بعد الهدنة، ومنها الثورة التي ادت الى خلع القيصر وثورة (شيرناكوس). واسهم في بعض الفعاليات السياسية واشترك في بعض التظاهرات.

كان محمود في حركة دائبة وافكار متلاحقة، يريد ان يعمل كثيرا، ويريد ان يكون كبيرا، ويشغل نفسه بهذا الحديث وذاك الخبر ويناقش ويجادل ويكتب، ولكنه لم يكن مستقرا تمام الاستقرار، ولم يكن ليدري ماذا يريد على وجه التحقيق، والعالم حوله يتلاطم، فالبلد في ثورة، والانكليز في قلبه، ووردت على البلد آراء جديدة تلقنتها طبقة محدودة من المستنيرين.

والتلاطم في الخارج يؤدي الى تلاطم في داخل محمود، وفي ذات نفسه فهو في نقاش معها وحوار، ولابد من ان يكون النقاش حادا، والحوار في صوت مرتفع، لانها نهب لمتناقضات، وليس معقولا ان تتلقى الاراء الجديدة وما تسمعه منها وتقرؤه عنها في سهولة ويسر وهي التي نشأت في بيئة عتيقة عميقة الجذور، يكون ما رأى من عقائد وقرأ من كتب صفر ركيزة قوية في تكوينها.

ولقد ظل على ذلك مدة، لعلها سنتان..

توطدت الصداقة بين محمود وحسين ثم عبدالله وعوني، وكانوا يلتقون كثيرا ويتناقشون طويلا، واكثر ما يقع اللقاء في غرفة لمحمود في جامع الحيدرخانة او في مقهى ناصر الصالحية، او في الباب الشرقي.
درس حسين الرحال الثانوية في استانبول ثم سافر الى المانيا، وكان في المانيا ابان الحرب العالمية الاولى، وشهد الثورات التي قامت بعد الهدنة، ومنها الثورة التي ادت الى خلع القيصر وثورة (شيرناكوس). واسهم في بعض الفعاليات السياسية واشترك في بعض التظاهرات.

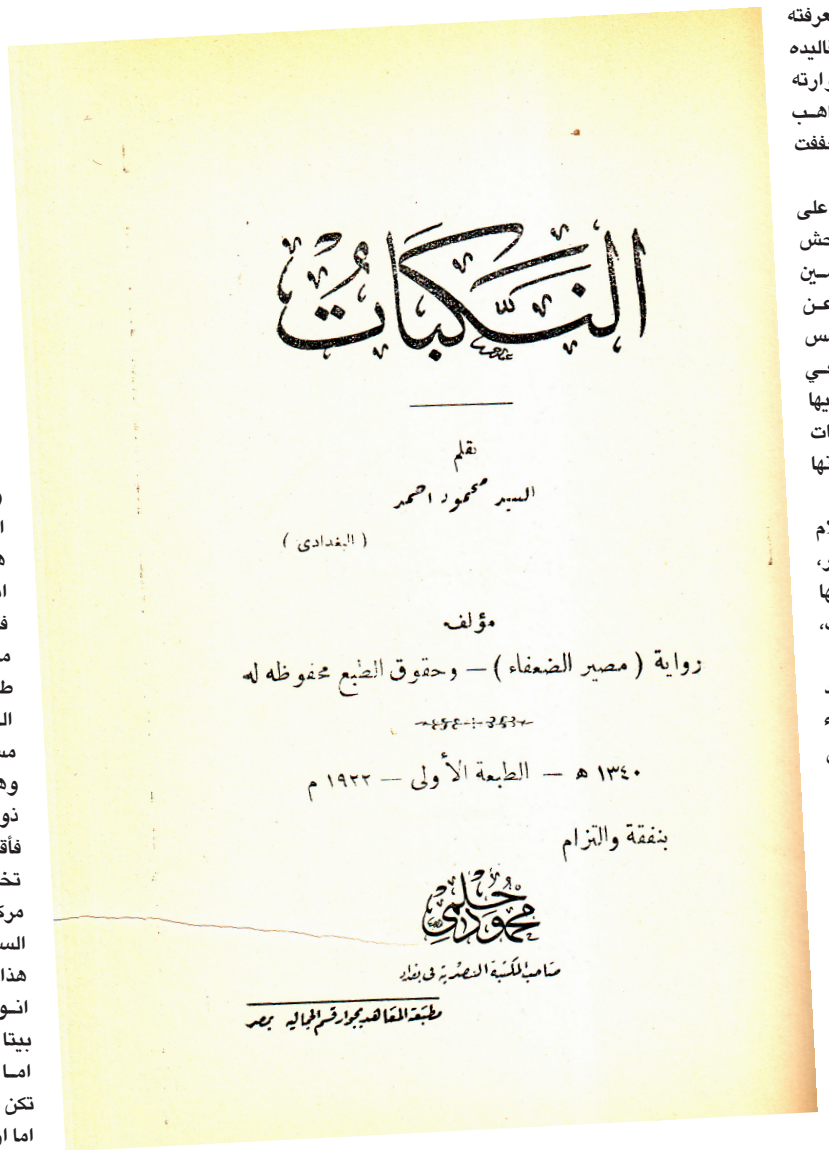

عن كتاب الاعمال الكاملة لمحمود احمد السيد الصادر عن وزارة الثقافة والاعلام ١٩٧٨ بغداد

العراقيون
من زمن التوهج
العدد (1678)
السنة السابعة
الخميس (17)
كانون الاول2009

رسائل متبادلة بين محمود احمد السيد وعوني بكر صدقي

الرسالة الاولى
الخطبة
٥ ربيع الثاني سنة ١٣٤٠هـ
اخي عوني:
كثرة اختلافي اليك، وترددي عليك، واجتماعي بك حينا بعد حين في الايام الماضية، كل ذلك كان يمهد لي السبيل لان احكي لك ما اشاهد وارى ما يعرض امام عيني على ستائر سما الحياة الكبيرة، ومن المناظر الحسنة البشعة المضحكة المبكية، وابسط لديك ميمر على مخيلتي في الساعة بعد الساعة من الحقائق الراهنة او الخيالات والاوهام، واضع بين يديك ما عندي من الاراء المتطرفة، والافكار الشاذة.
وقد كنت تتلقى ذلك مني برغبة واشتياق اولا، حتى اذا ما افرغ منها تبدأ بتمحيصها باعتناء تام ثم تستحسن منها ما تستحسن وتستهجن منها ما تستهجن، وهكذا كنا نتبادل الاراء والافكار ونتناظر ونتحاور حتى نطرق كل باب ونهيم في كل واد.
اما الان وقد بعدت عني، وحالت بيني وبينك الحوائل، فلا حيلة لنا لاعادة الكرة غير المكاتبة والمراسلة.
ليس عندي شيء يستحق الذكر، سوى اني اورد لك حادثة شاهدتها ومازلت حتى هذه الساعة أفكر بها.
انها مسألة ربما كانت تافهة بنظر الناس، ولكن ذلك لايهمني ابدا.
ارجوك ان تقرأها بامعان ثم تكتب لي عما ترتئيه ولو ببضعة اسطر.
دخلت امس المسجد الكبير فرأيت الخطيب واقفا على منبره يخطب بالناس قائلا:
كونوا ذوي اخلاق فاضلة.
فالفضائل وحدها السبب المؤدي الى السعادة في الدار الدنيا.
كونوا صادقين.
فقد قيل ان الصدق سيد الاخلاق وابو الفضائل.
اقول (الصدق) واعني به الصدق في القول والعمل، في السراء والضراء في كل حال من الاحوال.
كونوا ابطالا شجعانا. فالشجاعة والاقدام هما عماد الاخلاق واساس النجاح في الاعمال.
الرجل الشجاع هو الذي يقدم على الامور بقلب باقوى من الفولاذ واذا ما اصابه حادث خطير يقف له رابط الجأش، ساكن القلب، قوي الجنان، حاضر اللب، لاتأخذه دهشة ولاتخالطه حيرة او رهبة، والرجل الجبان بعكس ذلك: شتان مابين الاثنين، ذاك يفوز بالمعالي وهذا يبقى في الحضيض الاسفل.
كونوا ذوي عزم وارادة.
فالشجاعة وحدها لاتكفي مالم تكن مصحوبة بالارادة التامة.
كونوا متواضعين لامتكبرين.
فالتواضع لايزيد الرجل الا رفعة في اعين العالم، وان الناس ليمقتون من تكبر او رفع نفسه فوق قدرها.
ليكن الفرد العاقل، لين الجانب سهل العريكة، مخفوض الجناح، متواضعا لطيفا فمن كان بعكس ذلك اهمله الاقربون وانفض من حوله الابعدون..
اكمل الخطيب خطابته ثم نزل وخرج، اما الناس فتفرقوا وذهب كل منهم الى شأنه وقد اكتفوا من تلك التعاليم بسماعها فقط.
وقفت هنيهة ثم تحسست وقلت: ايها الفيلسوف ! انت بواد والناس بواد.
انهم ماكانوا ولما يكونوا ذوي اخلاق فاضلة ولاصادقين ولاذوي شجاعة او عزم وارادة ولامتواضعين ابدا، لكنهم يعيشون..
والشذوذ النادرون، الذين هم لمقالك تابعون، ارنيهم، اين هم- في الدرك الاسفل، من نادر الحياة.
اجل تلك هي نظريات، ولكنها عقيمة لايعمل بها والناس يعرفون ذلك بيد انهم يخدعون انفسهم بها.
ويكفي، نعم ويكفي، انها تحفظ في صدور الفلاسفة او بين دفات الكتب وطيات القراطيس.
اخبرني ايها الصديق الصادق هذا خطأ أم صواب؟.
س. م

الرسالة الثانية
المجتمع والكتاب
٧ ربيع الثاني سنة ١٣٤٠
اخي محمود:
بالامس حظيت برسالتك التي ارسلتها الي، ولقد سرني منها حريتك في كلامك، وصراحتك بما يخالج ضميرك وعدم اتباعك الطريقة التي سار ومايزال يسير عليها بعض الكتاب عندنا فينمقون العبارات تنميقا ويزوقون الكلام تزويقا، فيأتون بآراء لايقبل بها وجدانهم، ولاترضاها ضمائرهم.
اولئك على فريقين: فريق اغرته الدنيا بزخرفها وادهشه الاصفر الرنان بصو لته فوهب كلما عزله في حياته في سبيل الحصول على امنيته، فهو معذور فيما يكتب وغير مسؤول عما يقول، لانه طوع ارادة ارباب المال واسير احسانهم.
وفريق اضلته الخرافات، وحالت بينه وبين الحقائق الاباطيل، فهو لايريد ان يكتب الاّ ما يكون موافقا لمشارب ابناء القرن الاول للهجرة، كأنه نسي انه من ابناء القرن الرابع عشر، ذلك القرن الذي امتاز بتقدم اهله وتطور احوالهم الاجتماعية.
ولئن كنا نود ان نخترق هذه القيود ونزيل تلك الغشاوة عن اعين الناس فهل يجوز لنا ان نسعى لهدم اعظم اركان المجتمع قبل ان نبذل جهدنا لكي نشيد له بنيانا قويا.
ليست الانقلابات العظيمة التي تسبب تطور المجتمع وتغير حالته الاّ نتيجة التغير الذي يحصل في افكار الامة ومعتقداتها فالامة العربية لم تكن لتستطيع جمع شملها وتوحيد كلمتها الاّ بعد ان تشربت بالمبادئ الاسلامية تلك المبادئ التي سببت تغييرا عظيما في افكار العرب ومعتقداتهم فمن هذا يظهر لنا ايضا ان الانقلابات السياسية كقيام امة وسقوط اخرى ليست هي نتيجة تطور سياسي كما يظهر وانما هي (نتيجة تغير افكار الامة ومعتقداتها)..
فاذا كان الامر كذلك فانت ترى ان الواجب يدعو كلاً منا لان يبذل قصارى جهده في سبيل تهذيب الامة وتقويم معتقداتها حفظا لحياتها وصيانة لها من اعدائها وخصومها.
ولانتشاءم لمجرد ان هناك طائفة قد نبذت الفضائل ظهريا ولكنها تعيش عيشة راضية، او ان هناك طائفة اخرى فاضلة مهذبة، ولكنها لاتزال تتجرع غصص الالام في سبيل حياتها.
فان مثل هذه الحال ليست بغريبة عن مجتمعنا، ذلك المجتمع الذي لم يعلم حتى الان على اي المبادئ الاساسية سيقوم وعلى اي الافكار الاولية سيبنى مادام في دور تطوره وتغيره.
فمهلا مهلا ايها الاخ، لاتتطرف بأفكارك ولاتنفرد بمبادئك فاننا اليوم احوج الى اتفاق الكلمة، وتوحيد المساعي على ان يكون الاعتدال شعارنا وان لانجعل للتطرف مجالا يتسرب منه الينا، لكي تكون لنا يد فعّالة في هذا التطور التاريخي العظيم ولكي لايقال عنا اننا ضعاف لدرجة صرنا نتراخى امام امثال هذه الامور!.
ع. ب

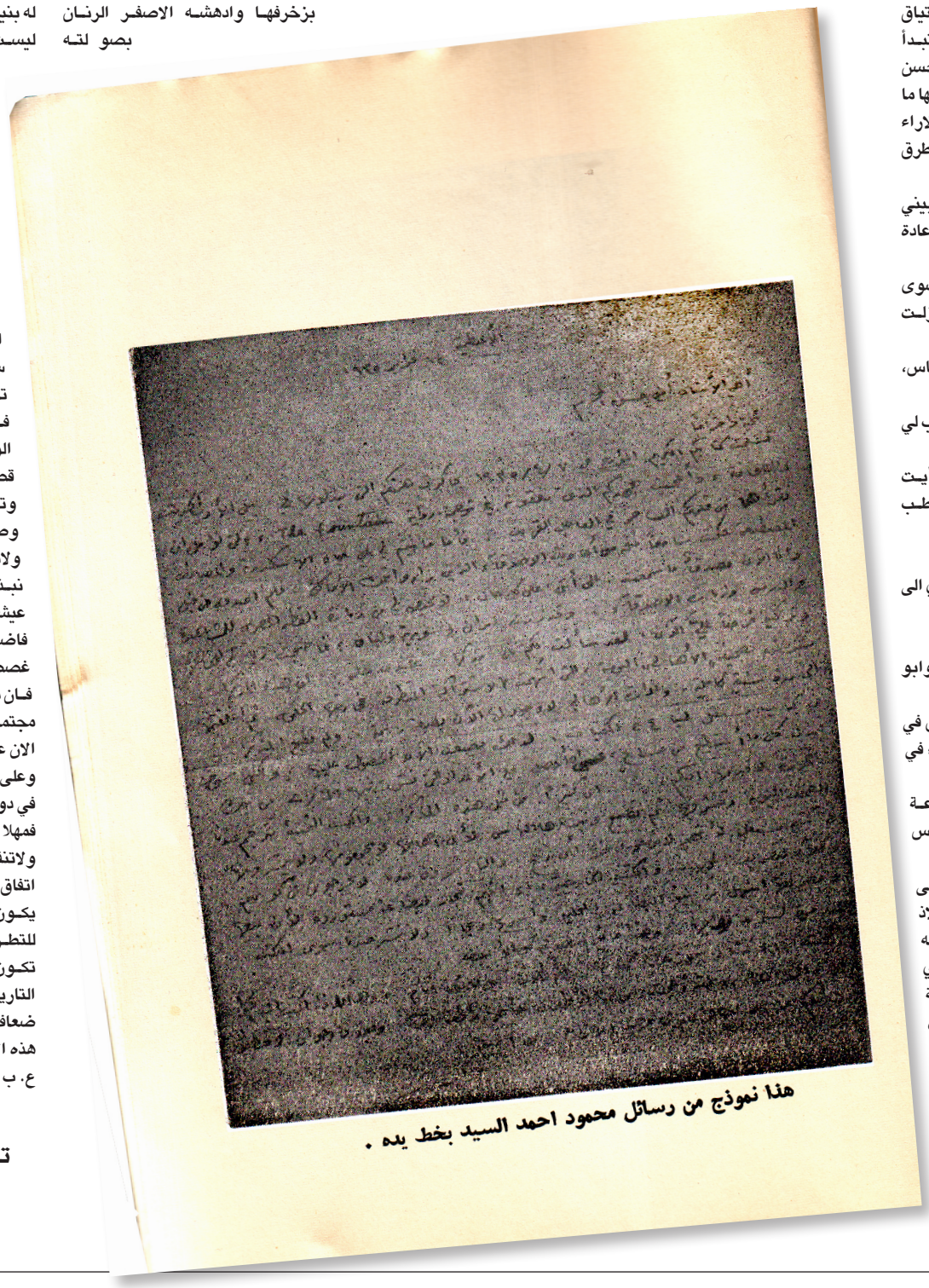

هذا نموذج من رسائل محمود احمد السيد بخط يده .

عن كتاب السهام المتناقلة تأليف محمود احمد السيد وعوني بكر صدقي

عراقيون
من زمن التوهج
العدد (1678)
السنة السابعة
الخميس (17)
كانون الاول2009

محمود احمد السيد
المدرسة العراقية الاولى في القصة

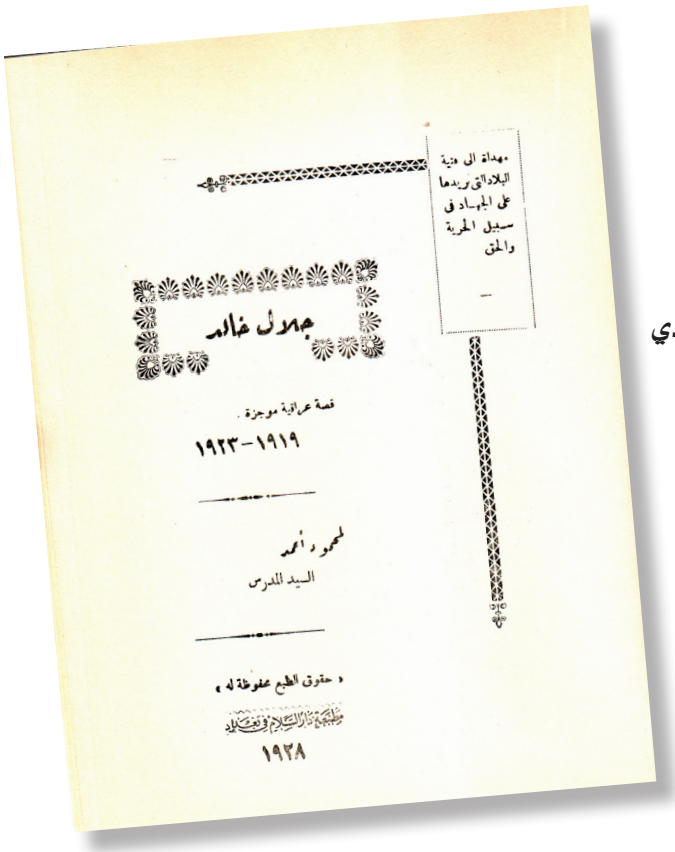

باسم عبدالحميد حمودي

لاتزال الدراسات القصيرة المتفرقة التي كتبت عن الاديب العراقي محمود السيد قليلة لاتصلح الاّ ان تعطينا وجيلنا الصاعد ثمارا قليلة، امام نهضة شعرية عراقية اصيلة لها ظروفها الموضوعية.

مازلنا نبحث حتى الان عن قصة عراقية بمستوى ما يقال من شعر، غافلين في الوقت ذاته عن الانطلاقة الرائعة المهمة التي بدأها محمود السيد هنا في العراق ايام توفيق الحكيم يكتب في مصر (عودة الروح)، وقد كان منتظرا ان يستمر التوافق الطردي فيترسخ كيان القصة العراقية وتتوضح معالمها وكان منتظرا ايضا ان نجد اعمالا عراقية قصصية كاملة ودراسات نقدية واسعة.. ولكننا نفتقر الى كل هذا ولست في مجال ذكر الاسباب.

ان نفحة خضراء وخيط شعاع رهيف واستعراضا لحياة الاديب الرائد محمود السيد لتوضح بثقة ان الرجل قد وضع اسس مدرسة قصصية عراقية المعالم من ناحية المضمون وان اختلفت بناء، انها المدرسة العراقية الاولى، مدرسة القصة الكلاسيكية المعتمدة على السرد بناء بوجه عام وعلى الرومانسية الممتزجة بالواقع مضمونا..

انها مدرسة عبدالمجيد لطفي وانور شاؤول وجعفر الخليلي وذي النون ايوب على اختلاف القيم والمثل، رائدها هذا الشاب البغدادي الخجول الموسوس الذي وضع لبنات طيبة لبناء رواية عراقية منذ مايقارب الاربعين عاما وترك الطريق ممهدا معبدا لمن بعده، كي يتموا البناء الذي مازل ينتظر.. وتنتظر معه جماهيره..

الى فتية البلاد المستعدة للجهاد في سبيل الحق والحرية، مثلها الاعلى يحدوها الامل الذي لاتقوى على تحطيمه قوة في الارض.. بهذه الكلمات قدم لنا محمود السيد مجموعة اقاصيصه الخامسة (الطلائع) التي صدرت عام ١٩٢٩، وقد كان للظروف التاريخية الحاسمة التي يمر بها العراق في تلك الفترة اثرها الحاسم في تصميم هذه الكلمات المؤمنة بالشعب الذي كان يقاسي عسف الاستعمار وسيطرته التي تخفت بداية تحت ستار الانتداب ثم برقعت عملية استغلالها البشعة لشعب ثورة العشرين ببرقع الاستقلال المزيف الذي ابقى المواد المحروقة السود في داخل المدخنة واكتفى بترميم وتبييض مظهرها الخارجي، لقد كانت (الاحوال) غير مستقرة وكان لهذه اثرها البالغ في تحديد مهمة السيد الادبية.

ولد السيد في عام ١٩٠١ وكانت الأعوام الستة والثلاثين التي قضاها متمشية بنسبة طردية مع نتاجه الذي لم ير النور منه الا ست مجموعات، الثلاث الاولى منها عالج فيها فن الرواية متأثرا بالمرحوم سليمان فيضي (خصوصا في قصة النكبات) مؤلف الرواية الايقاظية سنة ١٩١٩ التي يبدو فيها عامل الوعظ واضحا ومثيرا للاعصاب.. ولكنها على كل حال انطلاقة.

كانت اولى اعمال السيد (في سبيل الزواج) التي طبعها في مصر سنة ١٩٢١ واصفا اياها بأنها (مسرحية شرقية هندية) وقبل ان استعرض بايجاز احداث القصة اوّد ان اقارن بين سبب اختيار السيد للهند في هذه المسرحية ميدانا لمسرحيته وبين اختيارها من قبل ذي النون ايوب ميدانا لمجموعته القصصية (العقل في محنته) فسبب السيد اجتماعي اما دافع ايوب فهو سياسي ولست ادري ما الذي جعل الميدان.. عند الاثنين.. الهند بالذات، الاّ انه يمكن تعليل ذلك بالنسبة لايوب، بسبب قراءاته الواسعة المتنوعة وعدم ملاءمة الظروف السياسية وقتذاك له ليكتب عن العراق، اما السيد فان زيارته للهند هي التي ربطت احداث مسرحيته بمكانها.

ومجمل المسرحية: تنافس اثنان على حب فتاة وكان احدهما رئيس عصابة في جبل ما، مرهوب الجانب يخافه الناس، والثاني شاب مقدام لايخيفه هذا الشخص بل يحفزه جبروته ومنافسته في الرجوع الى حبيبته حيث يراها ماتت حزنا عليه.

كان عمر السيد آنذاك لايزيد على الحادي والعشرين عاما، ورغم سذاجة الفكرة فان هذه الرواية – ومن بعدها مصير الضعفاء والنكبات- قد حضيت بالانتشار السريع والنفاد المطلق في اسواق عراق تلك الايام والسبب في ذلك راجع الى ندرة النتاج الروائي والقصصي مما شجع السيد على مواصلة النتاج حيث نشر مجموعتيه الاخريين في سنة واحدة (١٩٢٢) اي بعد سنة واحدة فقط من صدور مجموعته الاولى، وبالرغم من ابتعاد (في سبيل الزواج) عن واقع العراق في ذلك الحين فاننا نجد في (مصير الضعفاء) استجابة واضحة لذلك الواقع، فهي تعطينا فكرة لابأس بها عن ظلم الاتراك وطغيانهم.

العثمانيون الذين ذاق العراق المزيد من العسف على ايديهم قبل مجيء الانكليز الى العراق عام ١٩١٤ حيث زادوا في الطين بلة كما يقال.

وبالرغم من الفجوات الكثيرة من ناحية السبك الروائي فاننا نعدها تجاوبا فعليا مع واقع عراقنا حينذاك.

اما رواية (النكبات) فيبدو لنا ان محمود السيد قد وضع على رأسه عمامة الوعظ وبدأ ينصح بعض موظفي إحدى الدوائر الحكومية بعدم شرب الخمرة والتبغ والشاي وعدم البصاق على الارض، على لسان بطلها الذي يدير اصحابه.. زملاؤه الموظفون

كانت اولى اعمال السيد (في سبيل الزواج) التي طبعها في مصر سنة ١٩٢١ واصفا اياها بأنها (مسرحية شرقية هندية) وقبل ان استعرض بايجاز احداث القصة اوّد ان اقارن بين سبب اختيار السيد للهند في هذه المسرحية ميدانا لمسرحيته وبين اختيارها من قبل ذي النون ايوب ميدانا لمجموعته القصصية (العقل في محنته)

وضعوا الخطط لكي يخرجوه من عمله، وبالرغم من عمامة الواعظ التي ارتداها السيد في شخص بطله وسخيف الافكار التي حاول ان يوضحها، فأن نهايتها غير الهادفة التي انتهت بفصل هذا الموظف من ان ينتصر، تعد انتكاسة تستوقف النظر.

بقي تعليلان لموقف البطل، اولهما ماذكره الاستاذ زهير احمد، نقلا عن المرحوم ابراهيم صالح شكر من رهافة ذوق السيد ووسوسته واهتمامه بالنظافة مما ينطبق ونفسية بطله، وثانيهما يمكن ان يوصف بموقف دفاعي يتخذه البطل كتكتيك لمهاجمة زملائه المهاجمين له فينتقد عاداتهم وينصحهم بترك (السيئات) الشائعة آنذاك ليكون في موقف التبرير الهروبي سايكولوجيا لكي يتخلص من استمرارهم في عملهم الذي اودى بوظيفته.. برزقه!.الى هنا تنتهي الفقرة الاولى من حياة السيد الادبية في رأي الدكتور جميل سعيد/ والاستاذ عبدالقادر امين، حيث يعترف السيد بعدها بأنه كان ناقص الثقافة قليل الاطلاع على مناهل الادب الكبرى العالمية وقد حفزه ما وجده في الهند – عند سفره اليها- من ثقافة على الدرس والمطالعة والاصطدام بالتيارات الفكرية الحديثة والمثابرة على التحصيل الادبي خصوصا انه كان يتقن اللغتين التركية والعربية مما ادى الى توسع دائرة تفكيره توسعا يدركه كل من اتقن اكثر من لغة في هذا العالم.

وبعد راحة دامت ست سنوات، باصدار السيد روايته الطويلة المعروفة ذات الجزءين (جلال خالد) عام ١٩٢٨، التي اختلط فيها السرد القصصي بادب المذكرات والرسائل الشخصية، وقد وضحت لنا هذه الرواية حياة السيد في الفترة التي قضاها في الهند بين ١٩١٩- ١٩٢٣، خصوصا في جزئها الاول من حبه العابر في الباخرة التي اقلته الى بلد الافيال والتيارات الى اصطدامه الجديد المؤثر بكل الهند.. لقد لمس فيها الحركات العمالية المطالبة بمستقبل افضل والاضرابات المستمرة التي نظمها الشعب وتأثر بالاشتراكيين الذين بدلوا نظرته المحافظة تجاه المرأة

ومن ثم ينتهي الجزء الاول بنشوب الثورة العراقية (سنة ١٩٢٠)..

اما الجزء الثاني فهو مجموعة رسائل متبادلة بين المؤلف – على لسان بطله جلال خالد – وصديقيه احمد مجاهد وسوامي شراد هنا ند الكاتب الهندي، تتضمن مناقشات حول التقاليد البالية واوضاع العراق وقلة المال التي لاتمكن المؤلف ومجاهد من اصدار صحيفة تسهم في ارشاد الشعب وتطويره.

ويقول الاستاذ عبدالقادر امين عن جلال خالد ان انتفاء الفكرة الاساسية من القصة كلها.. والاسلوب الذي تنتقل فيه من السرد البسيط الى الوثائق او الرسائل.. الخ.. هو الذي كان سائدا في القصة وهو امر نوافقه عليه بتحفظ، فان السيد رائد والرائد يخطأ ويصيب، ويرهق اعصابه في سبيل ايجاد قواعد جديدة للقصة لايساعده عليها الشكل التطوري العام لمجموع الادب المتخلف في العراق.وقد اصدر السيد مجموعته الخامسة عام ٩٢٩ بعنوان (الطلائع) وهي قصص قصيرة نجد فيها الشيء الكثير الممثل لواقع بلد السيد السياسي والاجتماعي كما نجد فيها توافقا مهما متطورا عن الاعمال السابقة في البناء، اي ان هناك توافقا مشهودا بين الشكل والمضمون وهو امر يدلل على تقدم السيد فنيا..

وكانت اخر مجموعات السيد قد صارت قبل وفاته بسنة (اي في ١٩٣٥) بعنوان (في ساع من الزمن) وهي لاتختلف اسلوبا عن السابقات وتزيد عليها من ناحية البناء بوجود نهايات متكلفة لاتنسجم وعملية التطور للاقصوصة ومن ناحية اخرى نتلمس اثر سيادة الطابع الاجتماعي على كل المجموعة ونجد اثر البناء المتكلف في اقصوصتي (عاتكة) و(بداي الفايز) وهو يعالج في الاولى مشكلة الطلاق وفي الثانية مسألة الثأر.توفي السيد عام ١٩٣٧ بمرض غريب يصيب الطيور كما يقول الاستاذ زهير احمد، بعد حياة شائكة مضطربة مأزومة عاشها منفتحا لدقائقها ومسجلا لاحداثها وواضعا – بعد ذلك كله- اللبنات الطيبة لبناء القصة العراقية الحديثة.

عراقيون
من زمن التوهج
العدد (1678)
السنة السابعة
الخميس (17)
كانون الاول2009

محمود احمد السيد . . وتجارب الحياة

د. جميل سعيد

في الحين الذي كان تيمور يضع قصصه في مصر، كان محمود احمد السيد يحاول مثل محاولته في العراق، واذا كان حظ السيد قد خمل ولم يذع ذيوع اخيه المصري، فربما كان من اسباب ذلك ان هذا الكاتب قد اخترمته المنية في ريعان العمر، وان الفن القصصي الذي ارتقى صعدا في مصر، لم تتح له الظروف المناسبة في العراق.
ولد محمود في خاتمة القرن التاسع عشر، ودخل المدرسة السلطانية العثمانية، ثم دخل مدرسة الهندسة وتحول عنها الى مدرسة المعلمين، وشهد تغير الزي في المدرسة، شهد القبعة الافرنجية التي اعتقد بأن لبسها حرام، وشهد رباط العنق الذي رأى فيه بعض الناس اذ ذاك رمز الصليب.

ودخل (مود) القائد الانكليزي بغداد عام ١٩١٨، وكانت الثورة العراقية على الانكليز عام ١٩٢٠ واستحال العراق قطعة من نار، واضاع الانكليز والعراقيون ماشاء الله من النفوس في هذه الثورة، ثم كان ان صار الشعراء العراقيون يتغنون بشعرهم، الفصيح وغير الفصيح، بما كانت لهم من اعمال مجيدة مشرفة، وكانت عواطف السيد في هذه الفترة على اشدها وحسبك انه حين يكتب قصته (جلال خالد) ويصور احداثها في الهند يذكر ان جلالا، مابرح الهند واستعجل السفر الى العراق، الا ليلتحق بالثورة في بلده، ويحارب في صفوف الثوار، ويصور اثر هذه الثورة في نفسه انه صار يتحدث عنها لاصحابه الهنود حديث المفاخر المتبجح.

ورغب السيد ان يتم تحصيله العلمي وان يتعلم في جامعة، فسافر الى الهند وهاله ما رأى عليه الهنود من عجز، وفاقة، وجوع يسترخص معه اشرف شريف، ويذل بسببه اقدس المقدسات، على انه مابرح ان رأى الهنود يأخذهم الوعي، ورأى عمالهم يتجمهرون ويلحون بالانصاف فيقتلون..

وعاد الى العراق وكانت الثورة قد خمدت وحصل العراقيون على بعض حقوقهم، اذ ان الثورة لم تثمر ما كان يتوقعه لها الوطنيون..

ويقول انه قرأ في هذه المدة كل ماوجد في مكتبات بغداد من كتب قراءة درس، قرأ بعض كتب الادب العربية القديمة التي صدرت عن المطابع المصرية وتفه كتب قاسم امين، والكتب المعرّبة عن اللغات الافرنجية وقرأ كثيرا من مجلدات المقتطف والهلال، ومجموعة الكتور شبلي شميل وقرأ فولتير الفيلسوف وغوستاف لوبون.

وكان يعرف التركية ويقرأ بها يقول لصديقه اني لوحيد وخير لي ان انصرف في وحدتي الى مطالعة الكتب الادبية المصرية الحديثة، وان كانت غير بالغة شأو ما تعرف من كتب الثقافة التركية وقد ولع بكتاب الاتراك وراح يتحدث عنهم ويفيض.

وقرأ الادب الروسي واعجب به عن طريق الترجمات العربية، يقول في قصته جلال خالد في الحديث عن محاضرة في الادب فبحث في الادب الروسي بحث العراف الخبير، فذكر قصة الجريمة والعقاب لديستوفسكي، واتى على ذكر تولستوي فوصف قصصه واحدة واحدة، واتبعه بتور جنيف فتحدث طويلا عن قصته الارض والعذراء وقصصه الاخرى، وبحث في الاقصوصة فكر اعلامها ورجالها، ذكر انطون تشيخوف الروسي، وذكر ماكسيم غوركي، كاتب العمال ومقالاته التصويرية الى العربية، وهو يذكر عبارات من هذه الكتب، هي نص لما نقرأه في الكتب المصرية، المترجمة لهذه الكتب.

واطلع على الادب الروسي من طريق آخر، من طريق معرفته للغة التركية، يقول في قصته جلال خالد لقد وصل الى كتابك فتلوته، وكانت بين يدي قصة مأساة لكاتب روسي كبير منقولة الى اللغة التركية.

هذه هي ثقافة السيد، يضاف اليها اختباراته وتجاربه في الحياة، وقد كانت اختباراته وتجاربه انفع له واجدى عليه فيما كتب، وسنعرض لهذا حين نتحدث عن قصصه وفنه.

قصصه وفنه:

ومحمود احمد السيد، هو الرائد الاول لفن القصص في العراق الحديث، ويقول انه عمد الى كتابة القصص لعلمه انها اهم ما يكتبه الكاتبون في عصره، وقد هاله الا يرى كاتبا عراقيا، يصرف همه الى ذلك، يقول في كتابه (مصير الضعفاء) وهو يتحدث عن اخواننا السوريين والمصريين، الذين كتبوا في هذا الفن من القصص: وقد جئنا نحن فأدلينا دلونا بين الدلاء.. فكتبنا رواية (في سبيل الزواج) و(مصير الضعفاء) وقد طبعت (مصير الضعفاء) عام ١٩٢٢ بمصر بمطبعة الاعتماد.

ووالى السيد كتاباته فكتب (النكبات) وقد طبعت (بمطبعة المعاهد) بمصر سنة ١٩٢٢، واحتجبت كتبه بضع سنوات، ثم طلع بقصته جلال خالد وهي اطول قصصه، وقد طبعها بمطبعة دار السلام ببغداد عام ١٩٢٨.. وتلاها كتاب الطلائع وهو دونها اهمية فطبع بعدها بعام ثم تلاها آخر ماوجدناه من كتبه فطبع عام ١٩٣٥ وهو (في ساع من الزمن) واعلن في آخره عن قصة للكاتب التركي ارجمند اكرم تالوا بعنوان اذ تغرب الشمس وقال انه ترجمها، وستنشر في المستقبل القريب.

وهو في قصصه الاولى، في (النكبات) وفي (مصير الضعفاء) ضعيف الاسلوب، ضعيف الحبك، ضعيف المغزى، تقرؤه فترى نفسك امام دفتر من طلاب المدارس الثانوية، وترى الاغلاط النحوية والاملائية كما ترى ضعف الربط بين الجملة والجملة والعباراة والعبارة وتراه يعمد الى قصص معروفة عند العرب، في كتبهم واسمارهم، فيبدل اسماء الاشخاص بعض الشيء، ويعمد الى الخيال، وخياله ضعيف في هذا الدور، فيؤلف الصور، ولكن الصور تجيء متنافرة قلقة، فلا تلبث ان تفرغ من القصة وانت تقول: هذا اغرب الخيال.

ففي قصته (مصير الضعفاء) يحدثك ان ابراهيم مات ابوه التاجر وربته امه ليلى وادخلته المدرسة الحربية، فكان ضابطا، وصار نديما للقائد التركي (ش باشا) في الموصل، واحب اخت القائد وصار يتظاهر بالسكر والاغماء ليتاح له النظر اليها، ويقول عن القائد وكان القائد اذا سكر غاب عنه وعيه.. وعرف ذلك ابراهيم منه، فانتهز فرصة سكره، وراح يقرأ القصائد التركية يمدح بها قومه الاتراك، واعجب بها غاية الاعجاب وهزته الاريحية فقال له (تمنّ عليّ ماشئت ان تتمناه، لأكافئك مكافأة لم تكن لاحد غيرك فانتهز ابراهيم الفرصة واسر في اذنه انه يريد ان يصاهره، ويقول القائد (نعم) فيخرج ابراهيم ورقة مكتوبة من جيبه، ويوقع عليها القائد من غير ان يقرأها، وفي الورقة، لقد رغب ابراهيم الضابط في مصاهرتي، وعرض في ذلك فاجبته بالقبول، ويفيق الباشا من سكره، ويخبر بما حدث، فتطير عصافير رأسه، ويحبس ابراهيم في سجن الموصل بدعوى جناية كبيرة ملفقة، ولاينسى ان يجعل الباشا يشرب وابراهيم ينادمه، على النغمات الشجية نغمات الاوتار تخالطها اصوات جواريه الحسان اللائي حففن به ودرن حوله استدارة الهالة بالقمر، يلهينه ويؤنسنه ببديع رقصهن وشجي غنائهن، ويجعله كذلك حتى ينتصف الليل او تدب الحميا في رأسه فيثقل وينام، فتجره جواريه ويدخل دار الحريم..

ومن نافلة القول ان نقول لك ان القصة تذكره بقصص ملوك المناذرة، بقصص النعمان وجذيمة اللذين رووا عن احدهما انه سكر فزوج اخته في حال سكره، ثم صحا فندم، وفعل مافعل.. وترى الجو مأخوذا من قصص الف ليلة وليلة.. وليس للكاتب الا تغييرا الاسماء.

وكان يكفيه ان يختم القصة ولكنه يوالي الحديث فيغرب.. يحدثك ان صديقي ابراهيم في المدرسة كانا عبدان العربي وحسن الفراش، حاول احدهما ان يقنع احد الاغنياء بالتبرع لمدرسة اهلية فلم يفلح، ثم كانت مشاجرة جرت اليها دعوته للتبرع فسجن في بغداد ثم نقل الى سجن الموصل. فالتقى بصاحبه ابراهيم هناك وجاءهما الثالث هاربا من سجن البصرة، لانه اشتغل عند احد الاغنياء فطرد، ثم جره الطرد الى ان يقتل سيده او رئيسه فحبس في سجن البصرة، ثم فر هاربا الى الموصل، فقبض عليه هناك واودع السجن.

واتفق الثلاثة في السجن على الهرب وهربوا.. وجاء فارس وهم جلوس في الصحراء فاطلقوا عليه رصاصهم، كان الفارس (زهراء) عشيقة ابراهيم، جاءت لتخبره ان الشرطة قد قدموا عليهم، وانها قتلت اخاها، لانه قتل ام ابراهيم، ورفض زواجها منه، وسمع ابراهيم الخبر فسقط مغشيا عليه، اما صاحباه فقتلا برصاص الشرطة..

وانت ترى ان القصة لاتستحق العناية ولا النقد..

واولى قصصه في كتابه (النكبات) ، (ابطال الخمرة) وخلاصتها ان موظفا كان لايحب الخمرة ولايقامر، وكان دائم الوعظ لاصحابه الموظفين

وقد افاد الكاتب من اسفاره وتنقله بين بلدان العراق، كما استفاد من رحلته الى الهند فهذه الرحلة برغم قصرها قد وسعت افق مداركه، وهو يقول عن نفسه في قصته جلال خالد: الا لقد بدلت الاحداث والكتب والتجارب خالدا الفتى، اجل لقد تبدلت ميوله السياسية، كان قوميا متحمسا فصار ينزع الى اليسارية او الاشتراكية.

وقد سبب هذا ان نفروا منه وسموه (الوحشي) وصار ثقيلا على اصحابه فطرد من وظيفته.. وغني عن القول ان الكاتب كان عليه ان ينصر الحق على الباطل، ليرغب الناس في الدعوة اليه، او ان يتحدث عن البطل المطرود من وظيفته بعد طرده فيعلمه في شؤون الحياة.. والا يقطع القصة عند هذا الحد.. هذا الا اذا اراد ان يرغب الناس في الخمر والمقامرة، ويصرف الواعظين عن وعظهم..

وقصته (في سبيل الزواج) نظنها مما اخذ من روايات السينما، التي تعرض الوانا من العصابات تتجمع للسرقة ولقطع الطرق، هي قصة رجل له ابنة تعرفت بشاب خطبها فرده ابوها، وفي يوم من الايام وجدت الفتاة كتابين لابيها، الاول من بطل الجبل، يقول فيه: انه يطلب الزواج من فتاة والكتاب الثاني من الكاتب نفسه يهدد فيه بقتل من يتزوجها غيره وبطل الجبل، هو رئيس عصابة، وحملت الفتاة الكتابين وارتهما لحبيبها، فهاجم اللصوص في مأواهم في الجبال والغابات.. وحزنت الفتاة لفراق حبيبها واخذ جسمها في النحول، وبعد شهر او شهرين عاد حبيبها فوجدها قد ماتت..

ولسنا نودّ ان نفيض في قصصه الاولى واحدة واحدة وتناولها بالحديث اذ كلها من هذا النحو الذي اشرنا اليه.

وبين سنة ١٩٢٢ وسنة ١٩٢٨ وهي السنة التي اخرج بها السيد قصته (جلال خالد) كان السيد قد حال وتغير، وقد قرأ ماوقع بيده من الكتب التي اشرنا اليها، وتأثر بكتاب الغرب ولاسيما كتاب الروس امثال تولستوي ودستوفيسكي، وصار يعمد الى الحياة يتخذ منها موضوعا لقصصه، وفي كتابه السهام المتقابلة، وهو مجموع رسائل تبودلت بينه وبين صديقه عوني بكر صدقي يقول عن صديقه هذا، وهو يتمسك باساطير الحكماء السابقين ودساتير العلماء اللاحقين وانا اتمسك بالحوادث اليومية، والامور الجارية امام اعيننا، وكل حزب بما لديهم فرحون، ويقول: وانا اقول اني فرد مزقت عني ثياب الانسانية الكاذبة فرجعت كما خلقت بشرا طبيعيا لايركن الاّ الى الحقائق التي يأخذها عن الطبيعة فقط، وهكذا ترى ان هذا التحول وحده جدير بأن يخلق من السيد كاتبا وهو جدير بأن يرغبه عن التقليد، ويلفت نظره الى ما يجري حوله من احداث وهذه هي عدة الكاتب اذا وهب النفس الحساسة، وملك ناصية اللغة واستقامت له نواحي الفن، وقد صدق السيد فيما قال، فانت تراه بعد هذا يأخذ قصصه وموضوعاته من تجاريبه، وترى النزعة الشخصية واضحة المعالم، في قصصه كل الوضوح فهو حين يتحدث عن (علي غالب) انما يتحدث عن نفسه وهو حين يتحدث عن (جلال خالد) انما يتحدث عن نفسه ايضا، ونستطيع ان نطمئن الى صدق ما حدثنا به، اذا ما علمنا ان هذه نزعته، وان الصدق رائده فيما يقول، ويسجل.

وقد افاد الكاتب من اسفاره وتنقله بين بلدان العراق، كما استفاد من رحلته الى الهند فهذه الرحلة برغم قصرها قد وسعت افق مداركه، وهو يقول عن نفسه في قصته جلال خالد: الا لقد بدلت الاحداث والكتب والتجارب خالدا الفتى، اجل لقد تبدلت ميوله السياسية، كان قوميا متحمسا فصار ينزع الى اليسارية او الاشتراكية. يقول هو قارئ الان ان الانسانية فكرة جامعة شاملة الامم كلها، وان القومية فكرة ضيقة النطاق، الغلو فيها يدفع الامم والاقوام الى الحرب الطاحنة فالدمار، وان الدين فكرة وان كانت اوسع من القومية نطاقا لم تجمع الامم والاقوام تحت لوائها.. وهو قارئ الان ان اعطاء المرأة حقوقها لامعنى له، مالم يسبقه التحرر من الاسر، ومساواة الرجل والاشتراك معه في العمل والانتاج.

وهو يخلص لهذه الفكرة اليسارية، ويتعلق بالكتاب الروس، ولاسيما تولستوي، فتراه حين يود تعريف نابليون يعرفه بأن يقول: هو ذلك الرجل الذي شتمه الفيلسوف تولستوي، وتراه يحاول ان ينطلق ولكنه يقع – من غير ان يحس- تحت تأثير الكتاب الروس، فيتخذ حوادث قصصه من النساء اللواتي سقطن، ومعلوم ان تولستوي جعل هذا محورا لروايته الشهيرة التي سماها (البعث) وهو يتحدث عن قصة (بول دي سويف) ويقول وهي مومس فرنسية ذات روح وطنية قوية، وكره شديد للالمان.. وتراه يعمد الى هذا في قصته (جلال خالد) ويقول ان فتاته سارة قد عثر عليها في دور البغاء، على اثر مشاجرة حدثت هناك، وتبين الشرطة فيها هويتها.. ويتحدث عن هذا في قصته اوتسهرين وفي غيرها من قصصه.وتحت هذا التأثير، وبهذا الطابع، كتب قصته (جلال خالد) وهي اطول ما كتب واحسن ماكتب والقصة تقع في ٦٨ ثمان وستين صفحة، ترى طابعه فيها يطالعك من اهدائها ومقدمتها، ويسير معك.. يهدي القصة الى فتية البلاد التي نريدها على الجهاد في سبيل الحرية والحق.. وقد اخذ نفسه بتسجيل ماشاهد في الهند، وفي العراق، وكأنه خاف ان يقرأها القارئ بالروح التي قرأ بها قصصه السالفة، فراح يقول عنها وهي حقيقة استندت في كتابتها الى مذكرات صاحبي جلال خالد الخاصة، ورسائله الى اصحابه، ورسائلهم اليه.. كما استندت الى احاديث الكاتب الهندي ف. سوامي- وهو من اركان القصة التي حدثني بها في الهند..

ويريد ان يزيل كل شك من ذهن القارئ فيقول: ولاتعجب فقد قدر لي ان ازور الهند كما زارها صاحبي جلال خالد، وان اعرف صاحبه سوامي كما عرفه، وان اصاحبه واجالسه واحاوره كما صاحبه وجالسه وحاوره، وهو في القصة يتحدث عما شاهد من فقر مدقع، وانحطاط خلقي يدفع الجوع اليه دفعا، ويتحدث عن اضراب العمال هناك، وعن قسوة الانكليز المستعمرين، وفي هذه القصة يتحدث عما شاهده في جنوبي العراق وعن القبائل التي يعجبه منها شجاعتها واستبسالها في الحق، ويؤلمه منها فقرها وتمتع رؤسائها المسيطرين عليها، بما لها من حق في الارض، وتؤلمه جهالتها وهي الكسف من الظلام متراكم بعضه فوق بعض.

واسلوب السيد في هذه القصة، قد استقام واعتدل عما كان عليه في قصصه السالفة، وصار يحسن التعبير ويحسن ربط الجمل وربط الفكر، وتراه ينزع هذه المرة الى استعمال الالفاظ الغربية، ثم يأخذ في تفسيرها وتوضيحها في حاشية صحائف الكتاب.

ومع انه وهب حسن التعبير واتجه يكتب بعواطفه ونفسه، الا انك مع ذلك لاترى الفن القصصي يستقيم له في هذه القصة كما يتوقع القارئ.

فالقصة لم يجد حبكها، وكان عامل الامتاع فيها هذا الصدق الادبي الذي يحدثك به الكاتب، وهذه الاحداث التي تهز جوانب النفس هزا.. ومع انه قال ان القصة غرامية، فانك لاتكاد ترى الحب فيها الا خافتا ضعيفا، والكاتب حين يتحدث عن الحب يحاول دفعه عن نفسه، كأنه يرى في الحب معرة، ولاسيما حين يجعل العشيقة فتاة يهودية وتحدث عن جلال بأن جعله ينتمي الى اسرة متعصبة للدين، ولاتراه يعقد موقفا غراميا.. وكل الذي تراه هو انه احب هذه الفتاة، ولم يصرح لها بحبه، ثم كان يتتبع اخبارها حتى عرف انها صارت بغياً.. وقد آلمه هذا وشق عليه حتى خشي عليه ابوه الهلاك..والشطر الثاني من القصة يختتمه برسائل، يتحدث فيها عن مشاهداته وتجاربه في العراق.

ويتحول السيد تحولا آخر فيرى ان الكتابة – كتابة القصة وغيرها- لاتجدي نفعا، وعليه ان يقلع عن الكتابة والخطابة الى العمل.. يقول في رسالة الى صديق:

الا ما اضعفنا واضعف عقيدتنا ما هذا الانزواء عن العالم، والتلهي بالمطالعة، في زوايا دورنا.. انأكل ونشرب وننام على وسائد الراحة والنعمة ثم لانعمل عملا غير كتابة الرسائل، يرسلها بعضنا الى بعض، تحمل الاهات والانات! وهل اصلحت الاهات والانات شعبا؟ وهل في رسائلك التي كنت ترسلها الي، تصف لي حياة الفلاح العراقي وشقاءه، ما يسعده، وينجيه من عذابه، ويحرره من الاسر؟ وينقطع عن الكتابة ثم يعود اليها، وتراه هذه المرة في كتاباته تبدو عليه الوسوسة، ويتذكر انه يريد التحرر وانه حتى في نزوعه الى تحرره كان يقع تحت طائلة التقليد، ولاسيما لهؤلاء الكتاب الروس الذين احبهم واخلص لهم، يقول في ص ٥٤ من (الطلائع).. وقد اشتريت هذا السجل ثم ندمت، ولعليّ اشتريته بعد ان قرأت في احدى الصحف ان تولستوي كان يدوّن مذكرات كل يوم من ايام حياته، في سجلات مثل هذا حتى مات فأجبت ان اقلده.. بيد اني لم اقلد احدا في عملي منذ بضع سنوات.. وانا الان اشد ما اكون بغضا للمقلدين واذن فلن افعل كما كان يفعل الفيلسوف لن آتي كل يوم صبحا مكتبا فاتناول هذا السجل لادون فيه مذكرات ومع ذلك فلست اريد حرقه..

وتراه بعد ذلك يبدأ بتسجيل ما يراه من احداث ولكنها احداث تافهة. وكأنه يشعر هو بافلاس ايامه من الحوادث، ولم يعد يرى فيها ما يستحق التسجيل، فيعمد الى ماسبق نشره عام ١٩٢٩، ينقله بالحرف الواحد، وقد يعمل فيه قلمه بتحوير او تبديل يسير، ويضيف اليه مايراه في حياته اليومية، وينشره في كتاب (في ساع من الزمن)، ولايفوتك ان السيد كان في هذه الفترة سكرتير (مجلس النواب) في بغداد وهذه الوظيفة لاتعدو بعض صور ينقلها مما يشاهده في بعض مراقص بغداد التي كان يتردد عليها مع صحبه في بعض لياليه.. وتراه يكتب عن مغنيات بغداد ويعزي نفسه بأن يقول: ولما كان الجاحظ وهو من ائمة الدين يؤلف الرسائل في القيان، كنت عازما على كتابة فصل في نقد مغنيات بغداد، اللائي يطربن ابناء الشعب في ساعات لهوهم ومرحهم، فقلت اخاطب نفسي اليك المادة الاولى من مواد الموضوع، ثم اخرجت قلمي ودفتر مذكراتي فكتبت: كانت المغنية الراقصة الاولى التي يسمونها جميلة العودية.. ونقرأ ما كتبه فلا نراه يستحق القراءة وتفرغ من قراءته فترى نفسك امام بيت بشار بن برد:

وما لما قلت من راسٍ ولا ذنب

وبعد فنجمل ماقلنّاه عن السيد فنقول، انه الرائد الاول في كتابة القصة العراقية، وحياته وحدها تستحق ان تكون موضوع قصة طريفة، نزع الى التقليد اولا واخذ في ثقافة نفسه بما حوله من كتب، ثم عمد الى الحياة وتجاربها، وحسبك بالحياة وتجاربها معدنا للثقافة، وكانت حياته قلقة غير مستقرة اول الامر، وروحه وثابة الى نصرة الحرية والحق فصار يجاهد ويكافح واخرج في هذه الفترة خير آثاره، ثم كانت حياته حياة راحة ودعة فلم يجد مايقوله، وكذلك شأن الكتاب، ان الحرمان والجهاد كانا وسيطلان معدن الادب، والاديب اذا ماظفر بالراحة والدعة ظفر بالخمول والهبوط.

عن كتاب نظرات في التيارات الادبية الحديثة في العراق ١٩٥٤

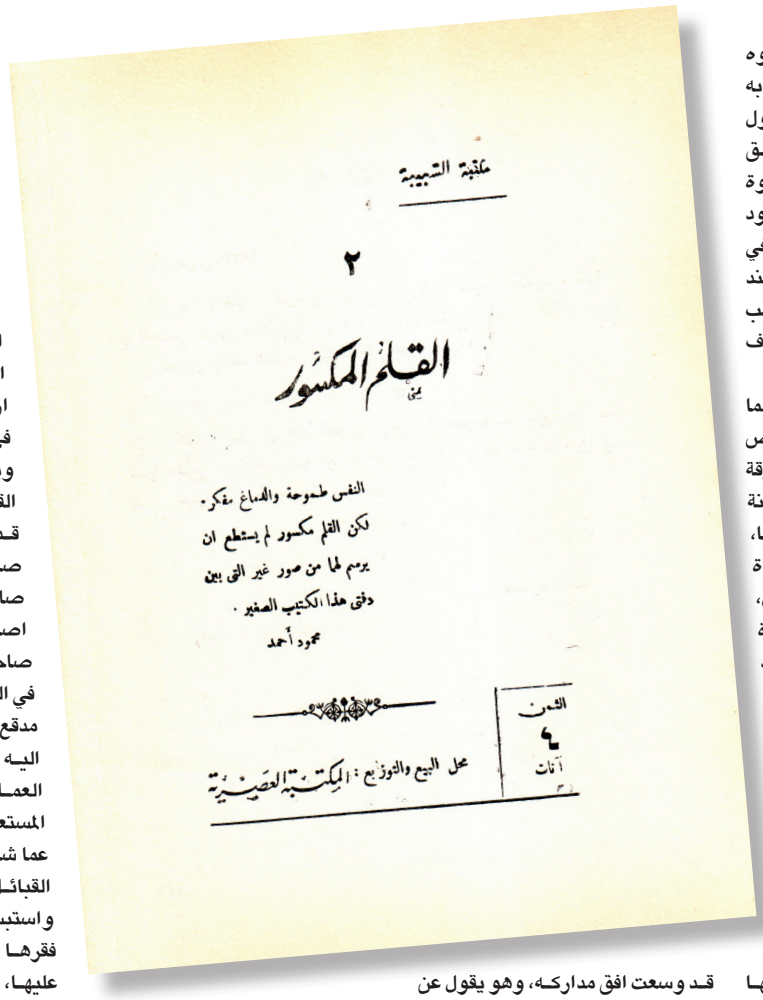

واسلوب السيد في هذه القصة، قد استقام واعتدل عما كان عليه في قصصه السالفة، وصار يحسن التعبير ويحسن ربط الجمل وربط الفكر، وتراه ينزع هذه المرة الى استعمال الالفاظ الغربية، ثم يأخذ في تفسيرها وتوضيحها في حاشية صحائف الكتاب.
ومع انه وهب حسن التعبير واتجه يكتب بعواطفه ونفسه، الا انك مع ذلك لاترى الفن القصصي يستقيم له في هذه القصة كما يتوقع القارئ.

العراقيون
من زمن التوهج
العدد (1678)
السنة السابعة
الخميس (17)
كانون الاول2009

محمود احمد السيد . . والقصة في العراق

د. علي جواد الطاهر

علم من اعلام الادب العراقي الحديث، لم ينل حقه من العناية، لذا، وجب خصه بدراسة جامعة تلتزم اصول البحث الحديث في الجمع والاستقصاء والمناقشة والموضوعية – قبل فوات الاوان.

كان محمود احمد منصرفا الى الادب، كأنه لايستطيع الحياة دونه ولايستطيع ان يعيش من غير ان يقرأ ويناقش ويكتب، فهو وجوده وهو مثله الاعلى.

واذا ادعى انه (هاو)، فان ذلك تواضع وقول تمليه ظروف طارئة، فما هكذا يكون (الهاوي) ومن شأن (الهاوي ان يستمتع او يقلد دون ان ينتج او يدون والانتاج والابداع وليدا الجد والمثابرة والطماح (والموهبة)..

وكل ما في امر دعواه الهواية ان ينزه نفسه عن الرخص، وان يبين ان الاديب في عصره لايستطيع ان يعيش من قلمه، ثم ليبين انه لايدرس الادب منهجيا ولايدرسه وانما هو امرؤ يعيش من عمل اخر، هو الوظيفة في الدولة، ويبذل الجهد في هذه الوظيفة من اجل الارتقاء في المدارج الحكومية، وقد ارتقى فعلا، فقد وصل بجده وحتى بأدبه من حيث لايدري الى مركز مرموق هو سكرتارية مجلس النواب وراتب قدره ٤٢ دينارا، ولم يستطع ان يصل الى ذلك اصحاب الشهادات الحقوقية، ولا الذي عمل لهم الا الوظيفة.

لقد كفته هذه الوظيفة مؤونة العيش، واطلعته على اشياء كثيرة اثرت تجاربه ودخلت الى نتاجه.

وكان عليه ان يذكر انه كان يرى نفسه اكبر من كل وظيفة شغلها، وان مصدر هذا، الشعور بانه اديب، وانه اكبر بأدبه من رؤسائه، هؤلاء (الرؤساء)، الذين يحتاجون اليه ويخطبون وده ويحتملون كبرياءه، ويستعينون بمواهبه فيستصغرهم، وكان يحز في نفسه ان يرى ما يدبجه لهم من مقالات وردود وخطب ينسب الى غيره من النواب والوزراء واصحاب الرياسة.

وكان عليه كذلك الا يدع مجالا لشعور بنقص ازاء اصحاب الشهادات، وما قيمة الشهادة من حيث هي شهادة، وهل بلغ مجموع حملتها ما بلغه هو من فكر وعلم وادب، كان يعلم ذلك، وكان يقوله، ولكنه ظل حيث هو.

وكان عليه الا يتضايق من المتقدمين في مدارج الوظائف، فلقد فاق العديد منهم، وما كان جديرا به ان يكون من شدة الحساسية في هذه الناحية بحيث يخشى من لم يبيت له المنافسة.

ان ما لقي من ارتقاء واعزاز جدير بان يطمئنه ويرضيه ويدفعه الى العمل في تفاؤل وانشراح، ولكنه لم يتفاءل، بل كان من التشاؤم والسواد والكآبة بحيث يحس بانه مظلوم، وانه مهان، وكانت حساسيته الشديدة توقعه في كثير من الاوهام، حتى ليهم احيانا بالانتحار، ولايجدي معه نصح الناصحين وتذكير الاصدقاء بل انه لينقلب على هؤلاء الاصدقاء ويتعبهم ويحملهم على الابتعاد عنه– غير راضين.

وفي ذلك ما يدل على ان حالته النفسية هذه عميقة الجذور، شديدة الغلبة على تصرفاته، ويزيدها ويرهفها ويؤججها طماح لايكاد يحد، وضمير لاينام.

ويروي عارفوه والمقربون منه اصنافا من شذوذ الاطوار، ومن مناقضة بعض الاعمال لبعض الاقوال، ويروون قضايا تعزى الى الغرور والغطرسة، وحب الترف حينا، والى التهور طورا، والى بذاءه تارة، في الوقت الذي يتحدثون عنه بما يعاكس ذلك من التواضع والتؤدة والادب الجم، والدقة والتأنق مما يدعو الى التفكير بنوع من ازدواج الشخصية او من اختلاط عناصر هذه الشخصية واضطراب بنائها.. مما يرجع الى ظروف مختلفة مر بها، واراء متناقضة تبناها دون ان تكون منسجمة مع البيئة الدينية ذات التقاليد الثابتة التي حفت بنشأته وتربيته..

مثل هذه الأمور كثير في حياة محمود احمد، وفيها ما يضحك وفيها مايبكي، حتى ان الانسان ليعجب كيف يستطيع امرؤ على ماكان عليه هذا الانسان من التشاؤم والكآبة والحساسية ان يكتب وان ينتج وان يحكم في اسلوبه الارادة فيخرج الاثر متينا متماسكا، منطقيا ناصعا، وهذا ماحدث لمحمود احمد بالفعل، ان قارئه لايحس بالتناقض، كثيرا، وانه بعد ان يودع المرحلة الاولى من حياة الكاتب، يكاد يراه منسجما في دعوته الى التجديد والتطور وفي يتبنيه الافكار الحديثة وفي حماسته الى الاصلاح الاجتماعي، فهو كاتب شعبي، حتى قال يوما: نحن الشعب، وهو كاتب مبكر في خدمة الشعب والعمل على الارتقاء به الى مصاف البشر..

ولو انسجم محمود احمد تمام الانسجام مع آرائه، ولم يبد عليه تناقض بين القول والعمل، لكان توفيقه كبيرا في الانواع الادبية التي زاولها، اكبر كثيرا مما حقق وبات فيه اهلا للاعجاب والتقدير.

ويمكن ان يعزى التجويد فيما جود فيه الى انه كان يكتب بعد ان تختمر الفكرة في نفسه وفي لحظات ينفصل بها او يكاد عما يحيطه او عما يكون له من رأس مناقض او عمل مخالف او راسب عتيق.

لقد اعرب محمود احمد عن شخصيته الادبية باكثر من نوع، فقد كتب مقالات (اجتماعية) في قضايا الساعة، وفي موضوعات يومية فيذم مظاهر التأخر ويدعو الى الاصلاح، وقد يقترب احيانا من السسياسة فيلجأ في الغالب الى شتيت من التواقيع المستعارة، تتناسب طردا مع حدة المقالة.

ويمكن ان تؤلف مقالاته مجلدا ضخما، ولو جمعت لكانت من الادلة على الفكر الاجتماعي في العراق الحديث، ولكنها لم تجمع، وكان صاحبها يرى ان المقالة ليست مما يجمع في كتاب كأنه يقصد منها ان تكون اعرابا عن امر عابر او عن حدث مر ورأي جريء، ولعله كان يستصغر شأن المقالة بين الانواع الادبية.

ولم يقل ذلك بدافع التواضع، وربما عكس به جانبا من نظرة معاصريه الى هذا اللون الادبي الناشئ المرتبط بالصحافة اليومية والذي لايكلف صاحبه كثيرا من الاناة في التهذيب والتشذيب، فهو لايزيد عادة عن خاطرة مثارة او رأي مقتضب، او دعوة للعامة او حديث يرسل على عجل..

في هذا شيء من الصحة.. ولكننا اذا قرأنا مقالات محمود احمد، رأيناها في جملتها– اكثر من ذلك، وحكمنا على انها اقرب الى الفن منها الى الصحافة، لانه لايكتب مايكتب لمجرد التعبير، وانما يحاول ان يجعل لغته ناصعة، ومفرداته مختارة، وان يقدم افكاره مترابطة داخل وحدة محكمة متجنبا الاستطراد مبتعدا عن اللغو، ولاشك في انه كان يقرأ مقالته اكثر من مرة ويقف منها موقف المهندس– قبل ان يدفعها الى المطبعة.

لقد كتب مقالات كثيرة، منذ وقت مبكر، فكانت له خبرات وتجارب، وسار متطورا نحو الامتن والانضج واتصفت مقالاته– كما هو الطبيعي– بوحدة الخاطرة ثم القصر، وربما كان هذا القصر– الذي هو من محاسن فن المقالة ولدت نفسيته.. ومن هنا كانت المقالة من الفنون التي تنسجم ومزاجه..

ان محمود احمد فصل في تاريخ المقالة العراقية، هذه المقالة التي رزقت وهي وليدة ناشئة في زمنه– اقلاما جديرة

لقد اعرب محمود احمد عن شخصيته الادبية باكثر من نوع، فقد كتب مقالات (اجتماعية) في قضايا الساعة، وفي موضوعات يومية فيذم مظاهر التأخر ويدعو الى الاصلاح، وقد يقترب احيانا من السسياسة فيلجأ في الغالب الى شتيت من التواقيع المستعارة، تتناسب طردا مع حدة المقالة.

بالاحترام..

لقد كانوا يكتبون في نصاعة وبيان، وكانوا يرسلونها فيضا فتملأ انهرا غزيرة من صفحات الجرائد، ولكنهم قلما خرجوا عن دائرة السياسية وقضايا الاحزاب، اما محمود احمد فكانت جملة مقالاته اجتماعية وفكرية واصلاحية بالمعنى والمدى البعيد.

وكم كنا نوّد – لو رزقت المقالة العراقية ما رزقته اختها المصرية من التنوع والفن بحيث تشمل الطبيعة والحب وكثيرا من موضوعات الشعر الوجداني..

وزاول محمود احمد الى جانب المقالة الاجتماعية، النقد الادبي، زاوله مبكرا- ايضا، كانه احس في نفسه مقدرة في هذا الباب.

كان في الكثير من نقده ذاتيا، حماسيا، منفعلا، اقرب الى الهجاء منه الى البناء.

ولم (يتورع) عن ان ينقد – بهذا المعنى- صديقا حميما او شاعرا كبيرا.. ولعله كان يحس وهو يزاول النقد على الشكل اللاذع الساخر الهائج بانه يشبع زاوية الظهور من نفسه، انه يطمئن هذه النفس على مكانها من التوجيه، والصدارة..

وكان واقع النقد في زمانه: هجاء وظهورا وتعاليا و(نقائض) واذ شذ عن هذا فمدح في غير مكانه واطراء على غير اساس، ولم تستطع (بوادر) المفاهيم الجديدة عن النقد في الدعوة الى بيان المحاسن والمساوئ، وفي التحليل والموضوعية والنظرة الواسعة للشكل والمضمون ان تفرض نفسها او ان تجد لها طريقا حتى لدى محمود احمد الذي سمع بهذه المفاهيم وهش لها واشار اليها..

وقد يكون محمود احمد احق كتاب هذه الفترة بصفة الناقد الادبي، فقد كان هذا الرجل – وهو في ابي الخصيب- يقرأ كثيرا ويتابع النتاج الجديد، ويتاثر بما يقتبسه القلم المصري من ثمار الفكر الغربي، ويجهد بعد ذلك- لان يكتب شيئا من النقد عليه طابع الهدوء والتحليل، ولو كتب له ان يواصل، وان يلم بلغة اجنبية لكان له شأن...

ولم يسلم (محمود احمد) من محمود احمد،، فقد تعالى هذا عليه وافتات على الاصول.

ومع هذا، يبقى لمحمود احمد مكان في تنشأة النقد الادبي (في العراق الحديث) واكثر مايبقى هذا المكان في نوع من انواع النقد، نقد الفكرة وحدها، هذا النقد الذي لاينظر الى الصياغة ابدا، وانما يوجه جل همه الى الفكرة، ويريدها جديرة، غير متناقضة، حية، انسانية، واسعة..

لقد نص محمود احمد على مثل هذا، وتوصل الى نتائج جيدة وكنا نود لو عني بالصياغة ولعله كان يقصد الى نوع من الانسجام بين الفكرة الجديدة وصياغتها، لعله..

ولم يكن غريبا ان يكون محمود احمد ناقد فكرة، وهو الاديب المثقف المستنير المطلع على الفلسفات والاراء، بل المعتقد انه يحمل رسالة وانه ملزم باذاعة هذه الرسالة في الاصلاح او التجديد والتطور..

ويبقى لمحمود احمد مكان خاص به في قضايا النقد، وكان مبكرا في الكتابة في امور تتصل بالانواع الادبية، ويتجلى مكانه الخاص في كلامه على فن القصة وعلى فن القصة الصيرة، او الصغيرة كما كان يسميها.

لقد جهد في ان يصل الى اسرارها، وقد وصل – او قارب، وكان موفقا اذ درسها في ضوء قصص شيكوف.

ولم يقتصر في بث الافكار وتقريبها من القارئ العربي على المقالة الاجتماعية والنقد، وانما زاول – من اجلها- لونا اخر كان فيه من المبكرين، في العراق ذلكم ماسمي بالتعريف، وقد اعانه على تحقيق هدفه، علمه باللغة التركية التي كانت تقدم لقارئها ثروة هائلة من شؤون الفكر الغربي، وكان محمود احمد قارئا كثير الاطلاع على الجديد، متابعا للادب التركي، واحدث مايجد فيه او ينقل اليه عن ادب الغرب وفكره..

وكان من اولى حلقات التعريف ماعقده في جريدة (المفيد) عن اعلام الادب الغربي..

ولكن فن التعريف يتصل اكثر مايتصل بالكتب، وكان طبيعيا ان يعنى به من نشأ في احضان المكتبات ومن ثار على المكتبة القديمة ورأى من واجبه اطلاع مواطنيه على ثمرات جيدة يعتقد انها نادرة المثال وجديرة بالانتشار والذيوع- وهكذا فعل، وكان له في هذا الباب مايؤلف كتابا خاصا.

وكان بين تراث هذه الكتب الروايات العالمية، وقد احتل تولستوي المحل الاول في هذا العمل اذ قدمه وقدم رواياته في خلاصة نافعة محاولات التحليل مستنهضا الى الاطلاع عليه كاملا.

وكان بينها ما الف في الفلسفة والفلاسفة في المكتبة التركية خاصة..

ويتصف التعريف الذي يقدمه محمود احمد بالوضوح وبالحماسة الى الاثر الملخص..

ان علم محمود احمد باللغة التركية اعانه على ان ينقل الى القارئ العربي، اعجابه بكتاب تركيا الكبار، وان يترجم عنهم مجموعة من القصص تنسجم واراءه وافكاره، وتحمل – في الغالب- معاني التجديد والتطور والاصلاح والثورة- ولو جمع ما ترجمه في هذا الباب لكان كتابا مهما..

كان محمود احمد يطل بهذه اللغة على العالم الغربي الذي يتحرق اليه. وكان صديقه حسين الرحال يساعده في اطلالته هذه عن طريق ما يترجم له او يتعاون واياه على نشره مشتركا- ولكن هذا لايغني تمام الغناء.

لقد هم اكثر من مرة ان يتعلم لغة غربية، وحاول ان يظهر بمظهر من يعرف الانكليزية ويدعي اجادتها، ولكنه لم يبلغ من هذه اللغة ما يمكنه من القراءة والترجمة- حتى لقد ولد ذلك فيه ضربا من عقدة يتحدث عنها عارفوه، وتظهر (بوادرها) فيما يضمن مقالاته من كلمات اجنبية يرسمها احيانا بالحرف اللاتيني..

لو اتيح له التمكن من هذه اللغة لكان اوسع افقا مما كان عليه، وادق علما، واغزر نتاجا واعم نفعا- لانه رجل لايكل من القراءة ولاتواني في التثقيف والاستزادة والنشر..

لم يكن كاتب عراقي ليجاريه في الخصب الذي كان عليه كأنه اذ يكتب وينشر يبين عن مفهومه لما يجب ان يكون عليه الكاتب النافع، ويعكس صورة لما عليه الكاتب النشط في مصر او في الغرب.

لقد مون محمود احمد عشرات الصحف بمقالاته في الميادين المختلفة، وبالاشكال الادبية المتنوعة، واستطاع ان يحتل الافتتاحية والاماكن البارزة، من الجريدة والمجلة، وارتبط ببعض الصحف ارتباطا وثيقا حتى ليمكن عده من محرريها الدائمين، وسيعرف له قدره اولئك الذين سيؤرخون للصحافة العراقية.

بل انه لم يقف عند هذا الحد، فلقد كان مطمحه ان يصدر مجلة تعبر عن آرائه في الاصلاح والتجديد، وان تكون انموذجا للمجلة ذات الرسالة التي ترتفع بها عن مستوى التجارة والربح الحرام، وقد كاد يتحقق ذلك يوم صدرت (الصحيفة)، الاّ ان هذه الصحيفة لم تعش طويلا.. فظل الامل يراوده، وعمل على ان تكون للعراق مجلة تليق به حين صدرت (الحديث) وكم كان يوّد لو طال عمرها.

وفي هذه (الحديث) ومجلة معاصرة لها (النشء الجديد) عاد محمود احمد يزاول القصة القصيرة في نجاح وفي مفهوم حديث قائم على مطالعة وتأمل لخوالد التراث في القصة الغربية ونظر في اهم الاراء من فنها..

كانت هذه العودة عام ١٩٢٦- ١٩٢٧.

اما المزاولة الاولى فقبل ذلك (١٩٢٠- ١٩٢٢) اي قبل ان يبلغ العشرين اذ (جازف) وكتب في بلد لم يألف القصة الحديثة ولم يجرؤ ادباؤه على مزاولتها، ولم يكن ينظر اليها (احد) نظرة احترام..

اقدم هذا (الشاب) ونشر في الناس، في سبيل الزواج، مصير الضعفاء، النكبات، وهذه القصص وان كانت وليدة، ناشئة، اقرب الى الحكاية والمقالة، فيها كثير من الاستطراد والوهم فانها- مع ذلك- تحمل خميرة القصة الحديثة.. فقد كانت تزحف على الارض وتعيش بين الناس.

لقد دل على موهبة في مزاولة القصة، اذكاها مزاجه وظروفه والمرحلة التي كانت تمر بها بلاده، واعانه على استثمارها قراءته الكثيرة المتصلة، ووقوفه على الفكر الحديث وعلى افاق الادب العالمي وما جد فيه من نتاج قصصي وما صحب هذا النتاج من نقد وحديث عن واقع الفن واسراره، وخدمه في مسيرته معرفته اللغة التركية ولو عرف غيرها من اللغات الاجنبية الحية كان له شأن آخر- وصلته المباشرة بالنتاج العربي الحديث ولاسيما في مصر البلد الذي احبه حبا جما وعاش مع ثمرات فكره وادباء قصته كأنه يعيش في بلد واحد..

ولم يكن الى جوار محمود احمد كتاب قصة في العراق بالمعنى الذي كان عليه وفي الوقت الذي كان ينشر ويتقدم، فهو في هذه الحالة جيل وحده، وانك، اذ تبحث عن اعضاء هذا الجيل تجدهم في مصر، فهو وكتاب القصة المصرية جيل واحد، ومن هذا الجيل، ان شئت التمثيل، محمد تيمور، محمود طاهر لاشين، محمود تيمور.. وفي المقدمات التي صدرت بها قصص محمود احمد مشابه لما في المقدمات التي صدرت بها قصص مصر، ولو كان منصور فهمي في العراق وطلب اليه محمود احمد ان يكتب مقدمة للطلائع لما غير كثيرا في المقدمة التي كتبها عام ١٩٢٦ لمحمود طاهر لاشين في مجموعة (سخرية الناي)، ولو اريد من كاتب عراقي ان يكتب مقدمة حديثة لاحدى مجاميع محمود احمد لما غير كثيرا في المقدمة التي كتبها يحيى حقي للطبعة الجديدة، من (سخرية الناي) التي صدرت سنة ١٩٦٤..

لو عاش محمود احمد لحقق ماكان اهلا لان يحققه، ولكنها النهاية العاجلة المفجعة،حالت دون بلوغ الامل الكبير، ويؤكد كل من عرفه – حتى محمد محمود- انه لو امهل لما فارق الجو الادبي، ولما قعد عن مواصلة النتاج، ولاستطاع ان يتقدم بالقصة ويصبح قصاصا كبيرا، ولم يكن التأكيد عبثا او مجاملة.. لانه قائم على اسس وحقائق ومعرفة التأكيد.

لم يكن التأكيد عبثا او مجاملة، لانه قائم على اسس وحقائق ومعرفة بتطور الرجل وفنه..

وقد ذكر الدكتور محمد مظهر سعيد- صديقه واحد القلائل الذين شهدوا ايامه الاخيرة بمصر – فقال: (قد حدثنا قبيل وفاته عن رغبته في التقاعد عن العمل ليتفرغ الى كتابة القصص الواقعية والتاريخية ويسير قدما في الطريق الادبي الذي اختاره..

عز فقده على كل عارفيه، وابكى اصدقاءه الذين لم يعودوا اصدقاءه في سنواته الاخيرة، وآلم الذين عرفوه خلال اثاره ورأوا فيه املا كبيرا لادبهم..

ولو سارت الاجيال التي زاولت القصة في العراق بعد محمود احمد على النهج الذي سلكه في الجد والمثابرة والاطلاع والتطور والعلم بمذاهب الفن والتوفر على شرط اللغة.. لاختصرت كثيرا في الوقت ولتجنبت تكرار التجارب، ولكان سيرها اوطد وتأريخها احفل ومكانتها لدى القارئ اسمى..

كان محمود احمد قصة لم تتم، ورائدا جديرا بالريادة.

لو عاش محمود احمد لحقق ماكان اهلا لان يحققه، ولكنها النهاية العاجلة المفجعة،حالت دون بلوغ الامل الكبير، ويؤكد كل من عرفه – حتى محمد محمود- انه لو امهل لما فارق الجو الادبي، ولما قعد عن مواصلة النتاج، ولاستطاع ان يتقدم بالقصة ويصبح قصاصا كبيرا، ولم يكن التأكيد عبثا او مجاملة.. لانه قائم على اسس وحقائق ومعرفة التأكيد. لم يكن التأكيد عبثا او مجاملة، لانه قائم على اسس وحقائق ومعرفة بتطور الرجل وفنه..

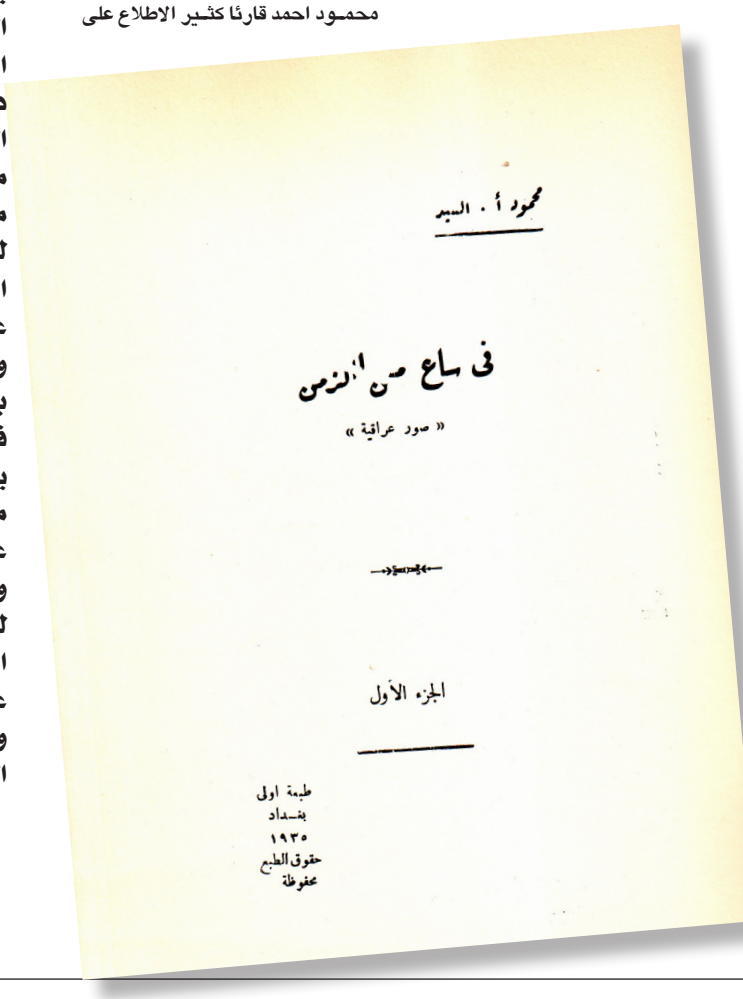

**عن كتاب محمود احمد السيد
رائد القصة في العراق
بيروت ١٩٦٩**

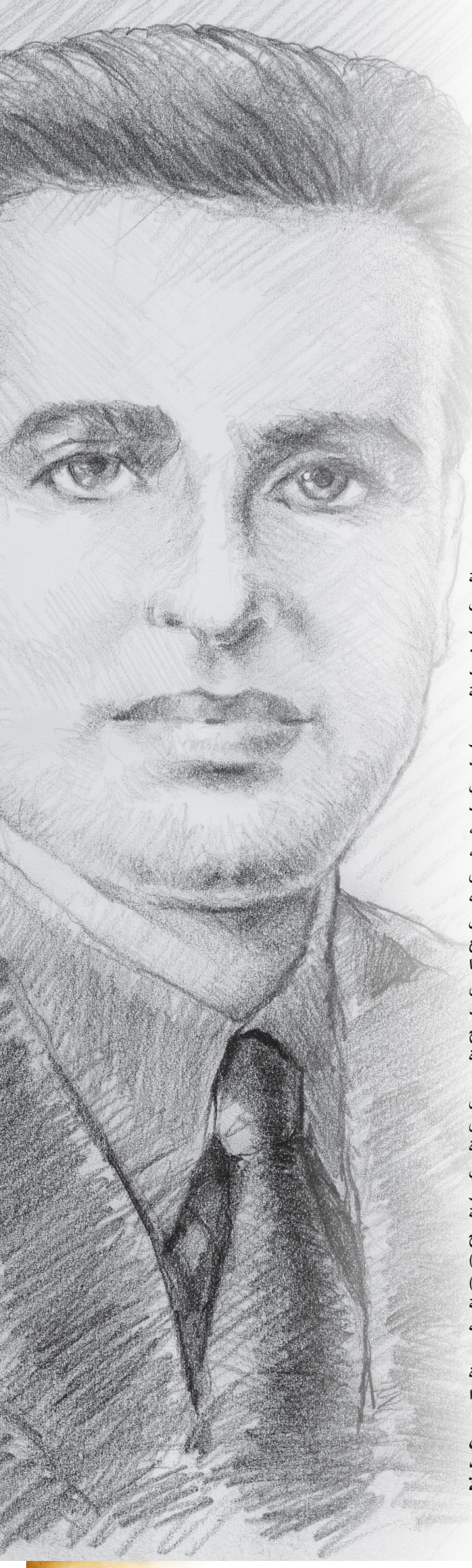

محمود احمد السيّد
٧٢ عاماً على الرحيل

في هذه الايام تمر الذكرى ٧٢ لرحيل رائد القصة في العراق محمود احمد السيد الذي ولد في بغداد في ١٤ آذار ١٩٠٣ ونشأ في جوّ ديني وغمرته الكآبة منذ سن الطفولة، فعلت وجهه، كما قال جعفر الخليلي في كتاب (القصة العراقية قديما وحديثا)، مسحة من الاسى والتأمل، وغلب عليه الهم والتشاؤم، وجاءت قصصه بعد ذلك حزينة في مضمونها وعنوانها، كمصير الضعفاء والنكبات والقلم المكسور والصحيفة السوداء، تترك في نفس القارئ اثرا لايمحى من تجهم الحياة وقسوتها. وقد درس في المدرسة السلطانية، حتى اذا ما احتل الانكليز بغداد سنة ١٩١٧ افتتحوا دورة للهندسة اشترك فيها فتانا.

وتخرج سنة ١٩١٨ فعين موظفا في دائرة الري بالهندية، لكنه لم يلبث ان ترك عمله بعد اشهر وسافر الى الهند (١٩١٩) وامضى فيها سنة واحدة.

عاد محمود احمد الى بغداد في تموز ١٩٢٠ واخذ بالكتابة في جريدة الشرق، ثم اقبل على تحرير المقالات والنبذ والقصص، ونشر كتاباته في الصحف كجريدة العراق والعالم العربي والاستقلا ل ومجلة اليقين والمصباح والصحيفة والمعرض والحديث والحاصد الخ. وعين كاتبا في وزارة الداخلية ونقل مديرا لتحرير لواء الديوانية وعاد الى بغداد مديرا للتحرير في امانة العاصمة في ايلول ١٩٢٦.

واصبح بعد ذلك سكرتيرا للبلديات في وزارة الداخلية فسكرتيرا لمجلس النواب (آذار ١٩٣٣) حتى وفاته..

وقصد القاهرة للاستشفاء من مرض عضال ألم به فتوفي بها في ١٠ كانون الاول ١٩٣٧، ولم يتجاوز الرابعة والثلاثين الا قليلا..

مال محمود احمد السيد الى الادب يافعا، وكان لسفره الى الهند اثر بليغ في نفسه، اذ اطلع على احوال وافكار جديدة، وعني بالقصة فكان رائدها في العراق في نفس الوقت الذي كان محمود تيمور رائد القصة في مصر، واولع بالادب التركي الحديث، فترجم الى العربية قصص جلال نوري وارجمند اكرم آل رجائي وضياء كوك آلب وغيرهم، وتأثر بآراء ادباء تركية المجددين.

جمع اقاصيصه وكتاباته في مجموعات: في سبيل الزواج (١٩٢١) مصير الضعفاء (١٩٢٢) النكبات (١٩٢٢) السهام المقابلة (مع عوني بكر صدقي، ١٩٢٢) هياكل الجهل (١٩٢٣) القلم المكسور (١٩٢٣) جلال خالد (١٩٢٨) الطلائع (١٩٢٩) في ساع من الزمن (١٩٣٥) وله آثار اخرى نشرت في الصحف والمجلات منها: عندما تغرب الشمس، وسواها من القصص المنقولة عن اللغة التركية..

ان قصص محمود احمد تزخر بالمعاني الانسانية والصور الاجتماعية وتدعو الى النهضة والاصلاح، ومذهبه في القصة المذهب الواقعي الذي يسلط الضوء على المجتمع العراقي في العقدين الثاني والثالث من القرن العشرين، ذلك المجتمع الذي يمر بطور الانتقال والتحوّل، ويضيق بالتناقضات والترسبات القديمة ويقرن التحفز والجرأة وعدم المبالاة بالتحفظ والانجماد والتمسك بأهداب التقاليد والشناشن البالية.

وقد كتب في ترجمة خطية له قبيل وفاته يقول عن نفسه: (اشتغل منذ عام ١٩٢٠ بالادب غاويا في اوقات فراغه، لامحترفا، وسعى في سبيل تكوين النثر القصصي في العراق.. وهو يعتقد بأن الجمع بين الادب والوظيفة مستحيل فيه التجويد والتبريز، ويشتغل بتأليف مجموع صور عراقية بعنوان (الدفتر الازرق)، لاهيا عابثا، متمنيا ان لاتدركه حرفة الادب في هذا الزمن، في هذا البلد، لانه لم يعتزم بعد الانتحار جوعا والموت في ظلام الزراية والاهمال)..

قالت مجلة (الصباح) القاهرية في عددها المؤرخ في ٢٤ كانون الاول ١٩٣٧: (..وقد بدأ حياته الادبية برواية "جلال خالد" التي قدمها الى فتية العراق التي نريدها على الجهاد في سبيل الحرية والحق.. واستند في تدوين وقائعها الى شبه مذكرات شخصية، وبالطريقة نفسها التي استند اليها استاذه الكاتب الهندي ف.سوامي في معالجة قصصه..

والحق ان "جلال خالد" هي عبارة عن موجز من حياة المرحوم السيد وسياحته في الهند وبلاد الشرق، وفيها استعراض قيم لحوادث العراق السياسية في غضون الاحتلال البريطاني واثناء شبوب الثورة وحماسة الشباب في رفع راية الجهاد وتلمح بين سطورها احاديث طلية عن مميزات الادباء الاتراك الذي تتلمذ لهم المؤلف، كعبدالحق حامد بك شاعر تركية القومي وجماعة (ثروت فنون)..

وقال محمود العبطة في كتابه (محمود احمد السيد) ١٩٦١: ومحمود احمد السيد، بما صورنا من ملامحه المستخلصة من ملامح عصره المأزوم وجيله القلق، قد بين رأيه في المشاكل والمواقف والازمات الدائرة في محيطه والماثلة امامه والشاخصة في بلده، بيانا قد لازم حياته وتطوره الفكري ونموّ مواهبه، وقد كان الطابع العام للعراق وللبلاد العربية بين انتهاء الحرب الاولى ونهاية الحرب الثانية ينحاز بلون رومانتيكي، يتغني بالحرية والانطلاق ويتعشق المثل وتهزه الاخيلة والالوان وتسيره العاطفة والاحاسيس..

وكنتيجة لميلاد الواقعية من الرومانتيكية رغم التضاد الذي يعتقد بوجوده بين الواقعية والرومانتيكية، فان الدعوة الى الادب الواقعي بدأت في الظهور في العراق بصورة مبكرة..

ولاحاجة للقول كون السيد من اول الدعاة الى الواقعية الاجتماعية البدائية..

وقال الدكتور علي جواد الطاهر في خاتمة كتابه (محمود احمد السيد: رائد القصة الحديثة في العراق) ١٩٦٩،، كان محمود احمد منصرفا الى الادب، كأنه لايستطيع الحياة دونه، ولايستطيع ان يعيش من غير ان يقرأ ويناقش ويكتب، فهو وجوده وهو مثله الاعلى، واذا ادعى احيانا انه هاو، فان ذلك تواضع وقول تمليه ظروف طارئة، فيما اذا هكذا يكون (الهاوي).. ومن شأن الهاوي ان يستمتع او يقلد دون ان ينتج او يبدع، والانتاج والابداع وليد الجد والمثابرة والطماح والموهبة..

ثم يضيف قائلا: ان قارئه لايحس بالتناقض كثيرا، وانه، بعد ان يودّع المرحلة الاولى من حياة الكاتب، يكاد يراه منسجما في دعوته الى التجديد والتطور وفي تبنيه الافكار الحديثة وفي حماسته الى الاصلاح الاجتماعي، فهو (كاتب شعبي) حتى قال يوما: (نحن الشعب) وهو كاتب مبكر في خدمة الشعب والعمل على الارتقاء به الى مصاف البشر.

توفي السيد عام ١٩٣٧ بعد حياة قصيرة مليئة بالاثار الادبية وا لسياسية

ملحق عراقيون يحتفي بذكرى رحيل السيد احد رواد الثقافة الوطنية في العراق

عراقيون
من زمن التوهج
ملحق أسبوعي يصدر عن مؤسسة المدى للإعلام والثقافة والفنون

رئيس مجلس الإدارة رئيس التحرير
فخري كريم

التحرير : علي حسين
التصميم : نصير سليم
الاشراف اللغوي : يونس الخطيب